عبير

ربيع الحب

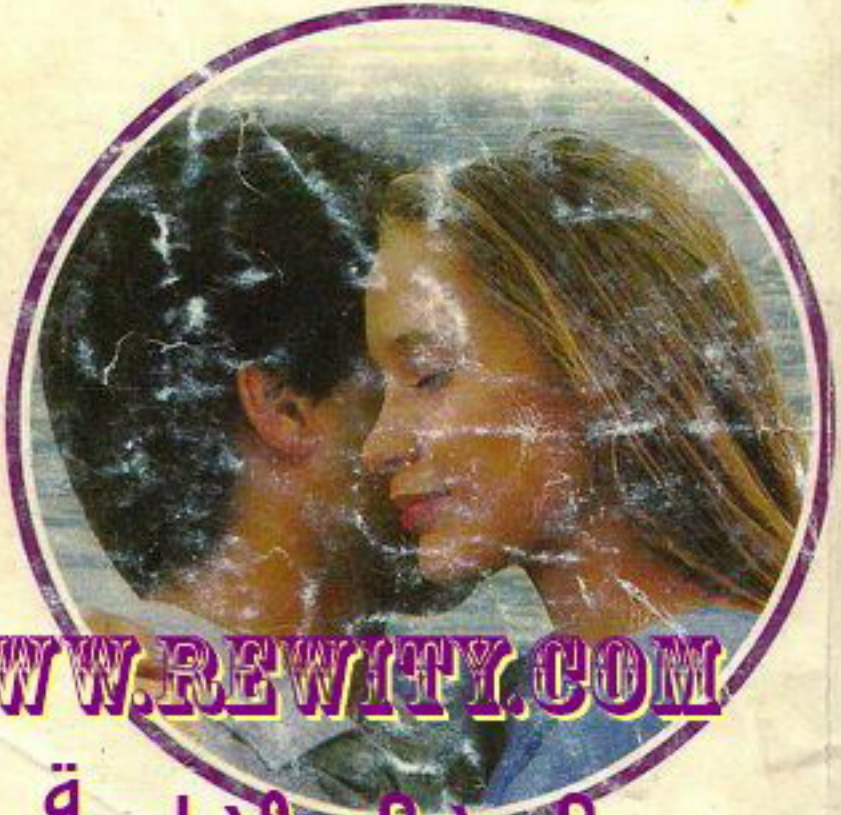

WWW.REWITY.COM

مرمورية

روايات عبير الرومانسية

5

AL AMEEN ROMANCE ABER No. 5

ربيع الحب

لكى تتزوج ، فيونا تاليس ، من ، بيتر هوليز ، الذى تحبه كثيراً ، رغم معارضة والدها الثرى ، أقنعت صديقتها المخلصة ،كرستين شو، أن تذهب إلى ضيعة السيد ،روبرت ستاندنج، – صديق والدها – بدلاً منها ، منتحلة شخصيتها ، حتى تتزوج من فتاها ، إلى أن يعود والدها الذى أوصاها بقضاء الإجازة فى ضيعة صديقه . وبالفعل ذهبت ، كرستين ، على أنها ، فيونا ، ، ونجحت فى دورها ، وهناك وقعت فى غرام ، مارتن فارلونج ، وكيل أعمال السيد ستاندنج ، غير أن الأحداث سارت عكس توقعات الجميع . فكيف اكتشف ، مارتن ، الحقيقة ؟ وماذا كان رد فعله تجاه ، كرستين ، التى أحبها على أنها ، فيونا ، ؟!

دار الأمين طباعة .. نشر .. توزيع DAR AL AMEEN

٨ شارع أبو المعالي (خلف المعهد البريطاني) العجوزة ☎ ٣٤٧٣٦٩١
١ شارع سوهاج من شارع الزفازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم

روايات الرومانسية

5

عبير

www.rewity.com

إيقاع الحب

دينيس روبنز

محسن شعبان زيدان

الفصل الأول

أعلنت صفارة الإنذار توقف الغارات .

وكانت «كرستين شو» قد أمضت ساعتين بجوار سيارة الإسعاف التى تقودها ، فى حالة استعداد أثناء الغارات الجوية فخرجت من المعسكر واتجهت إلى أقرب محطة أتوبيس وهى تحس بشىء من السعادة أنها لن تعمل الليلة . كانت فى غاية الإرهاق وكانت هذه ظهيرة يوم السبت مما يعنى فترة راحة طويلة هى فى حاجة إليها . ومما أضاف إلى أعبائها هذا الأسبوع أن المكتب الذى تعمل فيه كاتبة على الآلة الكاتبة قد أصيب بغارة جوية ومن ثم تولت هى مهمة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ملفات وأوراق والانتقال إلى مكان مؤقت فى جزء آخر من لندن .

كذلك كانت هناك غارة جوية عنيفة فى إحدى الليالى أسفرت عن الكثير من الجرحى والقتلى الذين كانت تنقلهم بسيارتها من تحت الأنقاض إلى المستشفيات . فى الليل كان على هذه الفتاة الهيفاء رقيقة البنيان أن تكون فى تصميم وصلابة الجندى على أرض المعركة ، لكنها أثناء النهار لم تكن أكثر من كاتبة فى مكتب محاماة فى «إن فيلد» .

أخذت شمس سبتمبر تبعث بدفئها على وجه وأطراف الفتاة فى هذه الظهيرة وهى تنتظر الحافلة لتنقلها إلى شارع «وروبك» حيث تشترك مع صديقة لها فى استئجار شقة صغيرة . وكان هناك العديد من الفتيات فى مثل حالها لكنّها فى هذه اللحظة بالذات لم تكن تشعر بالشجاعة أو الفخر بخدمة بلدها وقد علمت أن سبب هذا الإحساس هو الإرهاق الشديد الذى لا شك سيزول بعد حمام دافىء ووجبة كاملة مع نوم طويل – لابد أن ذلك سيعيدها إلى حالتها المعتادة من اللامبالاة لوخزات القدر التى رأت منها الكثير رغم صغر عمرها .

بعد أن جلست فى الحافلة أخذت تنظر من خلال النافذة إلى الحشود التى تندفع خارج بيوتها إلى الشارع وإلى السماء الزرقاء التى يكاد يخفيها دخان القنابل وهى تسأل نفسها لماذا كل هذا ؟ لماذا تكون هناك مثل هذه الحروب الفظيعة ؟ ولماذا ولدت هى – كرستين شو – فى مثل هذه العصر ؟ لماذا لم تعش فى العصر الفكتورى الهادئ أو الچورجى السعيد ؟ لماذا حتم القدر أن يموت أبواها فى حادث بالهند قبل أن تحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر ؟ فى ذلك الوقت كان الكولونيل «شو» قد تقاعد عن العمل بالجيش الهندى وينوى العودة إلى لندن وكانت كرستين قد أنهت الدراسة فى سويسرا وفى طريق العودة كذلك . كانت ستنعم بصحبة أسرتها فى وطنها . لكن القدر ... !

ولماذا أخذ القدر العم «ألفريد» الذى عادت للعيش معه فى لندن بعد ذلك الحادث ؟ ولماذا رزقها بابنة عم كريهة لم تود أن تبقى

كرستين معها فى البيت الذى خلفه العم ألفريد ؟ لم تكن هناك إجابات لأى من هذه الأسئلة التى دارت فى عقلها المتعب . إنها لم تعتدْ أن تستحوذ عليها الهموم والمشاكل ، ورغم كل ما تقاسيه فى شبابها فقد استطاعت أن تخلع ثوب الحزن وتواجه الحياة من جديد .

كل هذه الظروف أدخلت «كرستين شو» فى عداد العاملات حيث استطاعت أن تحصل على قسط من التدرب على أعمال السكرتارية كى تجد به عملاً مناسباً ، لكن الحياة تغيرت بعد نشوب الحرب إلى الأسوأ . شىء واحد جعل الأمر يهون على كرستين وهو أنها وجدت من تشاركها فى شقة صغيرة بشارع ووروبك . وكانت هذه هى «باربرا چنكيز» التى زاملتها فى التدرب على أعمال السكرتارية ، وهى الآن تعمل سكرتيرة شخصية لكاتبة روائية وفى الوقت ذاته مراقبة للغارات الجوية بالحى .

حتى الآن عايشت كرستين كل غارة جوية حلّت بلندن وقد واجهتها دون تزعزع ، وقد تقابلت مع كثير من الأمثلة العديدة فى الشجاعة والتحمل كان من بينهم «كنث هول» ، الذى يكبرها بعشر سنوات . كانت كرستين معجبة به ، لكنه كان يحبها وعرض عليها الزواج . أما هى فلم تستطع أن تستشعر الحب تجاهه – وكم تمنت ذلك فهو بالنسبة لها زوج طيب يضمن لها حياة آمنة مستقرة .. لكن للقلب أحوال ، وكان كنث قد أخبرها اليوم أنه سوف يترك المعسكر لأنه لا يتحمل رؤيتها بالقرب منه وهى لا تبادله إحساسه .

أطرقت كرستين وأحست أن القدر قد كتب عليها أن تفقد كل ما تحب ، ليس كنث فقط الذى ستفقد حبه وصداقته كذلك، لأن باربرا هى الأخرى ستتزوج من ضابط بحرى ، مما يعنى انتهاء إقامتها بالشقة ورفقة باربرا أيضاً . ورغم كل هذا فقد أحست أنها محظوظة إذ لم تكن بين المصابين الذين تنقلهم كل يوم فى سيارة الإسعاف التى تقودها .

وصلت كرستين إلى شقتها وهى تحس انقباضاً يغشاها منذ دخلت باب العمارة التى هجرها معظم سكانها بعد بدء الغارات على المدينة . وكانت الشقة ذاتها تعج بالفوضى لأن رفيقتها تقضى هذه العطلة عند إحدى عماتها . أسرعت كرستين تفتح نوافذ الشقة التى كانت تلاطمها أشعة الشمس طول الصباح . كم تحب أشعة الشمس الجميلة فى الريف أو على ضفاف النهر أو البحر أو فى حديقة غناء ! آه .. إنها لم تقض إجازة فى الريف منذ عام ونصف العام ! بعد أن غسلت كرستين أطباق الإفطار صنعت لنفسها كوباً من الشاى ثم استرخت لما يقرب من نصف الساعة فى الماء الدافئ ، ارتدت ملابس فضفاضة وجلست على مقعد بجوار النافذة تصلح جوربا وأرخت ظهرها وأغلقت عينيها . أحسّت أن فمها قد أُغلق على آهة لو انطلقت لكانت فى قوة غارة جوية ، وأن جفونها إنما تقف سداً منيعاً أمام فيض من الدموع . أحسّت فى هذه اللحظة أنها تريد أن تنهض وتذهب إلى كنث لتخبره أنها تقبل الزواج منه . لكن هذا سيكون قبل

كل شىء ظلماً له – ثم – أولم تقسم هى ألا تتزوج إلا بعد حب . ولم يكن كنث الشخص الذى تحلم به . إنها لم تقابل فى حياتها الشخص الذى يمكن أن تقع فى غرامه ، لذا أحست أنه ليس له وجود إلا فى خيالها . وأفاقت على صوت طرقات وقبل أن تجيب رأت رأساً تطل من الباب فانتفضت واقفة فى دهشة وقالت : من .. فيونا ؟

ودخلت «فيونا تشاليس» الحجرة وكانت ترتدى من الثياب أفخمها ومن الحلى أثمنها ، ولم لا وهى ابنة أغنى أغنياء لندن ؟ والعجيب أنها كانت صديقة محببة إلى كرستين وهما طالبتان فى المدرسة وقالت فيونا : كرستين حبيبتى ، كان يجب أن أراك لأمر هام . هل هناك من أحد معك ؟

– لا . نحن وحدنا تماماً .

تنهدت فيونا وكأنها على حافة البكاء . اصطحبتها كرستين إلى المقعد المطل على النافذة وجلست إلى جوارها وقد تملكها العجب من مظاهر القلق التى رأت على وجه صديقتها الثرية . لقد كانت آخر مرة رأتها منذ عدة أشهر مضت وكانت فى غاية السعادة ثم هى بعد ذلك تتابع أخبارها من الصحف والمجلات الاجتماعية – كريمة السيد تشاليس تقيم حفلة لصالح الصليب الأحمر ، الآنسة تشاليس تساعد فى نادى الضباط ، الآنسة تشاليس تراقص أحد جنود الحرس ، أنى لمثل هذه الفتاة أن تغشاها حالة كهذه ؟ وأى شىء على وجه

الأرض يُنغّص حياتها ؟ ورغم تزينها إلا أن وجهها كان يبدو شاحباً وشفتاها محمرتان وكأنّها كانت تبكى لتوها ، وقد ارتادت جسدها رعشة متوترة . فسألتها كرستين : ماذا بك يا فيونا ؟

– إننى فى أحسن الأحوال وأسوأها . إننى أحب . لكنه حبٌ يائس بلا أمل ، حب أضجرنى الطعام والنوم فلا أستطيع أن أفكر فى شىء سواه .

– ولكن ، لماذا لا يجعلك الحب سعيدة ؟

– لأن أبى تدخل فى الأمر ورفض تزويجى لبيتر .

وارتمت فيونا بين ذراعى كرستين وقد أجهشت بالبكاء قائلة :

– آه يا كرستين . لقد كنت على حافة الجنون ، وأنت الإنسان الوحيدة الذى يستطيع مساعدتى .

استغرق الأمر بعض الوقت كى تلم كرستين بشتات القصة التى روتها فيونا . منذ ثلاثة شهور مضت وقعت فيونا فى حب «بيتر هوليز» الذى قابلته فى نادى الضباط وهو ملازم أول فى سلاح المدفعية ، وأحس كل منهما أنه قد خلق للآخر . وكان بيتر شاباً وسيماً لطيفاً يُعتمد عليه بإقرار أبيها نفسه لكن أباها رفض فكرة الزواج السريع أثناء الحرب . وأضافت فيونا والدموع تزرف من عينيها : إنه يخاله حباً عارضاً ، ولا يستطيع أن يدرك أن هذا الحب هو كل شىء بالنسبة لى ، إنه ليس كتجاربى السابقة .

ترددت كرستين قليلاً فى الرد على فيونا ، فهى سرعان ما تنتقل من حالة حب إلى أخرى ، كما أن العديد من الفتيان يسعون وراء فتاة فى مثل جمالها وثرائها ، لكنها أحست بعد قليل أن الأمر يبدو مختلفاً هذه المرة . وسمعت فيونا تعلن بعاطفة وحماس : الموت عندى أهون من البعد عن بيتر ، وأستطيع أن أضحى بكل شىء وأحيا حياة الزهد معه إذا لزم الأمر . أعرف أننى كنت كالفراشة تنتقل بين الأزهار ، لكن بيتر قد كشف النقاب عن المرأة الحقيقة بداخلى . وأخذت فيونا تتحدث عن بيتر وأنه الآن يستقر فى لندن لكن فرقته قد تنتقل بعيداً بعد قليل ، ومن ثم فقد لا تراه ثانية . وعادت فيونا تقول لصديقتها : لابد أن أتزوج بيتر يا كرستين ، إنه إن قتل قبل أن نتزوج فلن أثوب إلى نفسى ثانية . أتصدقيننى يا كرستين ؟

لم تملك كرستين سوى أن تصدق صديقتها وهى ترى وجهها قد تحول إلى قطعة ملتهبة من جمر تنتشر فيها أجسام صغيرة لامعة كاللؤلؤ المنثور ، وأحست أنها هى التى تعيش هذا الحب وهذه الاستماتة من أجل من تحب ، فهى على نفس شاكلة صديقتها فيما يختص بالحب . لكن أنّى لرجل مثل أبى فيونا الذى كان قد ترك لها العنان تتصرف أنّى شاءت أن يقف اليوم أمام حب جارف كهذا ؟ واصلت فيونا قصتها لتخبر كرستين أن أباها مسافر إلى أمريكا لأمر حكومى خطير ، ولخشيته من أن تتصرف ابنته على نحو غير لائق أثناء غيابه فقد اتفق مع صديق قديم له يدعى «روبرت ستاندنج» أن

تقضى فيونا تلك الفترة فى ضيعته التى تقع فى «ويكام» فى بقعة جميلة منعزلة تحوطها مساحات واسعة من الأرض العذراء .

أطرقت كرستين وأحسّت تعاطفاً شديداً مع صديقتها وأخذت تجوب الحجرة تفكر ماذا عساها أن تقول أوتفعل لتساعد صديقتها . ثم إذا بفيونا تنهض إليها بوجهها الدامع وتمسك بيدها وهى تتوسل : ساعديني ! أرجوك !

فردت كرستين : إننى على أهبة الاستعداد لعمل أى شىء لمساعدتك ، لكن ماذا عساى أن أفعل ؟

– إننى أعرف طريقة لذلك وهى أن تذهبى أنت بدلا منى إلى ضيعة صديق أبى .

حملقت كرستين فى وجه صديقتها وهى تقول : أذَهبَ عقلك يا صديقتى ؟ ثم تبين لكرستين أن فيونا لديها ترتيب مسبق للأمر . إن السيد روبرت لم ير فيونا منذ كانت طفلة صغيرة ولن يستطيع التعرف عليها ، كما أن السيد تشاليس والدها سيكون فى أمريكا ، ولن تستطيع فيونا أن تتزوج من بيتر بعد سفره مباشرة ، ويكون قد تم الأمر ولن يستطيع أحد التفريق بينهما . كما أن هذه ستكون فرصة لكرستين لتستمتع بالرّيف الذى تحبه .

نظرت كرستين فى عينى صديقتها وهى تطلق ضحكة هستيرية : حبيبتى ! إنها خطة مجنونة .. إننى لا أستطيع .

– بل تستطيعين ، ولابد أن تفعلى ذلك . الأمر لن يستغرق سوى أسابيع قليلة . أرجوك . أرجوك يا كرستين . إن الأمر جد يسير خاصة وأنه ليست لديك ارتباطات هنا . عليك فقط أن تتركى رسالة للمكتب ولرفيقتك أنك تقومين بنزهة قصيرة تطوفين فيها أرجاء الريف ومن ثم فلن يكون هناك عنوان ثابت ، وأنا سأكتب لك رسائل تقومى أنت بإرسالها من الضيعة إلى أبى ، وبعد أن ينتهى شهر العسل أعود إليك لأخبر العم روبرت بالحقيقة .

– لكن يا عزيزتى .

– لا . لا يجب أن ترفضى . إنك الآن تبدين شاحبة مرهقة من العمل وفى حاجة حقيقية لمثل هذه الرحلة ، إنها تعنى الانتعاش بالنسبة لك والحياة بالنسبة لى .

هزّت كرستين رأسها وكأن عقارب ساعات الدنيا تدور بداخله . لقد أثرت فيها حكاية صديقتها . لكن أنّى لها أن تقوم بدور فتاة أخرى ؟ ثم كان هناك طرق على الباب . فلمعت عينا فيونا وهى تصلح من هيئتها وتقول لكرستين : إنه لابد بيتر . فقد طلبت منه الحضور لعلمها أن كرستين لن ترفض لها طلباً .

وقفت كرستين دون أن تنبس بكلمة وهى ترى شبح شاب طويل يرتدى زى ضابط ترتفع يده فى تحية عسكرية ، ثم تعانق الاثنان . أحست كرستين بانتفاضة فى قلبها ، وتدفق الدم مسرعاً إلى

وجنتيها . لقد هزها هذا العناق الطويل وجعلها تقرر مساعدة هذين المحبين فى إيجاد جنتهما مهما كان الثمن . استدارت فيونا مع بيتر إلى داخل الحجرة وقد انعقدت يداهما ، وبدأ بيتر الحديث وعلى وجهه ابتسامة المعتذر قائلاً : أحسبك تخالين أن كلينا قد ذهب عقله ؟

فردت كرستين ولا يخلو وجهها من ابتسامة هى الأخرى : تماما !! قاطعتهما فيونا : لكننى شرحت لك أهمية الأمر بالنسبة لكلينا وأنت توافقيننى . أليس كذلك ؟ ألسنا محقين فى التزوج على هذا النحو دون إذن أبى ؟

– لا أستطيع أن أقول «محقين» تماماً ، لأننى لا أعرف إن كان الإنسان محقاً بالمرة فى قول الأكاذيب ، أو ذهاب شخص مكان شخص ، لكننى أحس فى حالتكما أن أباك قد أخطأ التقدير . كان عليه أن يبارك زواجكما . هللت فيونا : آه . ألم أقل لك يا بيتر : إنها ستقدر موقفنا ؟ لقد كانت كرستين دائماً رومانسية حالمة ، إنها تؤمن بالحب ، وهى تؤمن بحبنا . أما هكذا الأمر يا كرستين ؟

– بلى . لكننى لم أعش ذلك الحب بعد ولا أعرف لذلك سبباً .

فى تلك اللحظة تلقت كرستين من بيتر نظرة فاحصة ويده لاتزال تحتضن فيونا . إنها تبدو شاحبة هزيلة لكنه لما تخيلها فى ملابس وحياة فيونا الرغدة وجد أنها قد تصير جمالاً حقيقياً . إنها تمتلك عينين جميلتين فى لون البندق ، وشعرها القصير قد صار كالرمال

التى انحسرت عنها مياه البحر فتركتها متدرجة ، يلف وجهها وكأنه البرونز . كانت تبدو رقيقة مرهفة الحس ، ومع ذلك كانت هناك قوة من نوع معين فى انحناءة شفتيها وقوس ذقنها . قال بيتر : فى يوم ما ستجدين ذلك الحب ، وسيكون رجلاً يتمنى أن يمنحك حياته تماماً كما أفعل مع فيونا الآن .

هرولت جحافل الدم إلى وجه كرستين ثانية فضحكت فى ارتباك وقالت وهى تحس بتأثير تلك الكلمات عليها : أشكرك . هذا أجمل ما سمعت فى حياتى . فقالت فيونا : إنك لا تتخيلين مدى رقته . التفتت كرستين إلى صديقتها وهى تقول : لكن حبيبتى ، ألا يمكن حل هذا المشكل دون اللجوء إلى هذه التمثيلية ؟

– لقد أخبرتك يا حبيبتى أن الأمر لا تكتنفه أى مخاطر وأنك ستخدميننى وأبى فى ذات الوقت ؛ لأننى لو أعلنته هذا التحدى قبل سفره فسوف يؤثر ذلك عليه وقد يحجم عن السفر تماماً ، وهذا أمر خطير فى وقتٍ كهذا والحرب دائرة . ثم التفتت كرستين إلى بيتر قائلة : إنها متهورة ، لكننى أتمنى أن تدرك أنت ما تقدمان عليه .

انحنى بيتر وألقى بقبلة على شعر فيونا الذهبى ثم قال : أعلم أنها شديدة التحمس ، لكننى أخشى أن تضر بنفسها ، فقد كان الواجب حقاً أن أواجه أباها وأحصل على موافقته الكاملة ، أو امتنع عن الزواج بها وإلا أكون ميت الضمير . فقالت فيونا بصوت ضعيف لا يخلو من

يأس : حبيبى . لا تدع وخزات الضمير تؤلمنا ثانية . لقد رتبنا كل شىء وسوف تساعدنا كرستين ؛ لأنها تؤمن بحبنا .

– نعم . إننى أؤمن به .

– وسوف تذهبين إلى ضيعة ويكام بدلاً منى ؟

ترددت كرستين لحظة وقد أحسّت أن عالمها يتحول إلى فوضى ، وأن شخصاً ما سيدفع ثمناً غالياً لهذه الخطة المجنونة التى رغم كل ذلك تطأ من قلبها موطئ السحر . إنها على وشك أن تقوم بعمل جنونى .. تتخلص من حياتها الغابرة وتنطلق إلى الريف .. إلى منخفضات وهضاب «لنكشير» و«وستمورلاند» الجميلة التى قرأت عنها الكثير . إن لهذه الأسماء وحدها لسحراً . قالت فى النهاية : قد نكون جميعاً مخطئين ، لكننى سأذهب .

* * *

الفصل الثانى

كانت الشمس تقارب نهاية طريقها إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية عندما كانت كرستين تهبط من القطار إلى محطة «جرانج» وكانت تحس وكأنها تؤدى دوراً فى إحدى المسرحيات وهى ترتدى تلك الثياب الفاخرة التى ابتاعتْ لها فيونا بعضها ومنحتها البعض الآخر من فساتينها ، فقد كانتا متقاربتين فى البنيان . وبينما وقفت كرستين مترددة لاحظت وجود فتاة سمراء هيفاء تحمل حقيبتين ثقيلتين وتتجه إلى السور الحديدى . لقد علمت أن هناك شخصاً يدعى «مارتن فارلونج» سيكون فى استقبال ثلاث فتيات ، اثنتان للعمل فى المزرعة والثالثة هى فيونا تشاليس . سمعت كرستين الفتاة الأخرى تسأل أحد العمال : هل هناك من يدعى السيد فارلونج من ستونهيد ؟ فكرت كرستين . ستونهيد جزء من مزرعة ويكام . لابد أن هذه إحدى الفتاتين ، فاقتربت منها وقالت : معذرة . إننى أنتظر السيد فارلونج أيضاً . نظرت الفتاة السمراء إلى كرستين التى تفوح منها مظاهر الثراء وقالت : أحقاً ؟ أنا اسمى «مولى ديكون» . كنت أعمل فى «أكسيتر» ثم انتقلت إلى هنا . المفترض أن تكون هناك فتاة ثالثة ، أعتقد أنك لست ... فقالت كرستين مبتسمة : نعم لست مزارعة .

لكننى متجهة إلى ضيعة السيد ستاندنج . هل تعرفين ذلك السيد فارلونج ؟

– لا ، ولست حريصة على العمل معه كذلك فقد بلغنى أنه اليد اليمنى للسيد ستاندنج وهو صارم فى العمل ويكره النساء . ليس من المتعة فى شىء أن تعمل المرأة تحت إمرة رجل هو عدو للمرأة . أليس كذلك ؟

وقبل أن تجيب كرستين سمعت صوتاً ساخطاً يصدر عن شخص اعتاد إعطاء الأوامر وهو يقول : أين بحق الجحيم هؤلاء النسوة ؟ هل علىّ أن أقابل كل فتاة تهبط من القطار لأسألها إن كانت متجهة إلى ستونهيد . النساء كعادتهن لا يعبأن بالوقت ولا يلتزمن بالتوقيتات .

ولما التفتتا رأيتا رجلاً طويلاً يتحدث إلى ناظر المحطة ، فقالت ديكون : يا له من ترحيب ! لابد أن هذا هو عدو المرأة .

أخذت كرستين تتفحص الرجل . إنها لم تدهش لما سمعت بل جعلها ذلك تزداد حنقاً فهى تكره الرجل الذى لا يعرف شيئاً عن الذوق . ومع ذلك فقد أقرت لنفسها أن مارتن فارلونج شخص ذو مظهر مثير للاهتمام . إنه مثال الكمال الجسدى : طويل ، نحيل ، عريض المنكبين ، كث الشعر أسوده ، ذو بشرة برونزية تصل إلى حد الاسمرار . وفجأة التفت ووقع بصره عليها . فأحست بصاعقة

كهربائية قد تملكت جسدها . يالها من نظرة مباغتة قوية . ثم خطا الرجل خطوات واسعة تجاه الفتاتين ، وعندما اقترب بما يكفى استطاعت كرستين أن تحدد لون عينيه الزرقاوتين . إنه رجل وسيم لولا تلك الشفاة الصغيرة والنظرة العابسة التى تملأ وجهه . لمس فارلونج قبعته بيده ثم سأل بجفاف : هل أنتما متجهتان إلى مزرعة ستونهيد ؟ فردت مولى بنفس النبرة الجافة : ها نحن . وقذف فارلونج كرستين بنظرة فاحصة من أعلى إلى أسفل ، نظرة حولت وجنتيها إلى اللون القرمزى .

– إذن ، السيارة بالخارج . واستدارَ وسار .

همست مولى : يا له من فظ ! ألستِ سعيدة أنك لن تعملى معه ؟

فقالت كرستين وهى تبتسم : حقاً . لكن يبدو أنه يظننى ثانيتك .

بالخارج كانت هناك سيارة فورد متداعية ، اتخذت مولى منها المقعد الخلفى وإلى جوارها الحقائب مما جعل كرستين تستقل المقعد الأمامى جبراً . فى الطريق بدأت كرستين الحديث : كم نبعد عن منزل السيد ستاندنج ؟

– اثنان وعشرون ميلاً ، ولنأمل أن نصل قبل حلول الظلام ؛ لأن إضاءة السيارة معطلة .

– يالها من متعة . إذن فقد نقع فى أحد المصارف ؟

– على الفتيات اللائى يشتغلن بالزراعة أن يعتدن المصارف .

رفعت كرستين حاجبها وتأكدت أنه لم يفرق بينها وبين المزارعة. وكان الهواء بارداً يتسلل إليها عبر النوافذ ، لكن جمال الطبيعة الذى نسيته عيناها فى لندن أخذ بلبها فنسيت البرودة . بعد قليل علقت قائلة : البرودة هنا أشد بكثير منها فى الجنوب . سلقها فارلونج بنظرة حادة لم يبد منها سوى الازدراء وقال : ليس من الخير لكنّ أن تفكرن فى هذه الأشياء البسيطة . لابد أن تعتدن البرودة . أكان على إحضار زجاجة من الماء الساخن معى ؟!

وتملكتها المتعة والغضب فى آن واحد ، فأياً ما كان يظنها فليس من حقه أن يكون بهذه الوقاحة . إلا أن تصرفه هذا أثار فيها روح التحدى فقالت : لا تعبأ بشأن زجاجات الماء الساخن . عليك فقط أن تهتم بطريقة تعاملك مع الناس . ورماها بنظرة أخرى سريعة ملؤها الدهشة والحنق . إنه لم يعتد وجود نساء معه فى العمل ، وليس هناك بالفعل سوى «إيمى» العجوز التى ترعى شئونه فى المزرعة . وماذا عساه أن يفعل بهذه الفتاة ذات الملابس الأنيقة والأيدى الناعمة ؟ إنه لا يستطيع أن ينكر جمال العينين المصوبتين تجاهه ، فهو لا يخلو من التأثر بالجمال ، لكن سحر هذه الفتاة والشذا الرقيق الذى يفوح من جسمها الجميل لم يثر فيه الإعجاب بقدر ما أثار فيه الكره . إن أشد ما يخشى هو النساء الجميلات ! ولم يكن هذا بلا مبرر بل هناك فى أعماق ذاكرته يكمن السبب العظيم .

حاولت كرستين فتح الحوار معه ثانية : بما أننى سأعيش هنا ، أود أن أعرف شيئاً عن هذا المكان . أين نحن الآن ؟

- إنها قرية «كارتمل» .

- لابد أنها جميلة تحت أشعة الشمس ؟

- إنها جميلة فى أى وقت . قال ذلك بصوت جاف محاولاً أن يخفى دهشته لتأثرها بالمنظر . إنه يحب هذا المكان فهو مسقط رأسه ويحفظ عن ظهر قلب كل شبر من الأرض التى ولد وترعرع على وجهها . وأطرقت كرستين تعبئ عينيها بما استطاعت أن تتبينه من مشاهد الطبيعة الغناء . إحلولك الظلام قليلا عند وصولهم إلى مزرعة ستونهيد . أوقف فارلونج السيارة واضطر أن يفتح الباب لكرستين بسبب تعطل الرتاج (الكالون) وصلابته ، وبمجرد أن خطت قدما كرستين الأرض المليئة بالحصى التوت وكادت تسقط على الأرض لولا أن فارلونج اضطر إلى مد يده لمساعدتها . كم كان إحساساً جميلاً ذلك الذى تركته تلك الأصابع القوية الطويلة عندما أمسكت بساعدها ، إنها مثل أصابع من صلب .

وضحك ساخراً رغم ما يعتلج بداخله : عليك ارتداء حذاء أكثر استواء عند العمل ! نظرت إليه فى غضب وقالت : أنّى لك أن تحدثنى بهذه الطريقة ؟

– هيا . هيا . عليك أن تعتادى تلقى الأوامر . أين تلقيت تدريبك ؟

– إنك تعاملنى وكأنك تنقل جوالاً من البطاطس ! أظنك ستكون أكثر حرصاً لو أنك كنت تنقل زجاجة من اللبن ؟ فأخذ يضحك ومولى تنظر إليهما منصتة . لحظتها ظهر رجل أشيب الشعر يرتدى بنطالاً قصيراً من ذلك النوع الذى يرتديه الصيادون ؟ وإلى جواره كلب صيد . بسرعة امتدت يد مارتن فارلونج إلى قبعته وهو يقول : مساء الخير ياسيدى . وهنا تذكرت كرستين كل ماأخبرتها به فيونا ، وها قد لاحت لها لحظة النيل من الصناديد الواقف إلى جوارها . فصاحت : السيد ستاندنج . كم أنا مسرورة لرؤيتك . قال أبى إننى لن أتعرف عليك ؟ فهل تعرفنى ؟ لقد اعتدت أن أناديك «بالعم بوب» .

فمد الرجل كلتا يديه وهو يقول : عزيزتى فيونا . حقيقة أنا لم أستطع التعرف عليك ، لكن كيف أتيت إلى هنا ؟ كان يجب أن تذهبى إلى البيت !

ثم التفت إلى فارلونج : لماذا أتيت بالآنسة شاليس إلى ستونهيد ؟

وطفق الفتى ينقل النظر من الرجل الأشيب إلى الفتاة التى تعلقت بذراعه فى تلقائية وبساطة ! ، ثم تملكه قليل من خجل لما أدرك خطأه . وقف دون أن ينطق بكلمة وهو يحس بعينيها الجميلتين

تسخران منه . كان هذا دورها لتسلقه بلسان حاد ، لكنها ابتسمت وقالت :

أعتقد أن السيد فارلونج خالنى جئت للعمل بالمزرعة . أتمنى ألا أكون قد خيبت أمله . تجرع فارلونج اعتذاراً سريعاً وهو لايكاد يطيقه ثم مد يده إلى قبعته تحية ! وانطلق إلى داخل المزرعة تتبعه مولى ديكون ، وأخذ السيد ستاندنج يعتذر للفتاة التى يحسبها ابنة صديقه تشاليس عن عدم استقباله الشخصى لها لانهماكه فى الصيد ، ثم أمطرها بوابل من الأسئلة عن أبيها ، أجابتها جميعاً بطريقة آلية . فى الطريق إلى ضيعة ويكام العتيقة التى تبدو من الخارج كالقصر المشيد ومن الداخل كالمتحف الفنى ، أخذت كرستين تفكر فى فارلونج دون أن تعرف لذلك سبباً . ثم نسيت ذلك لما رأت بهاء القصر وجماله ، وفخامة غرفة نومها والخادمة التى تقف على متطلباتها ، أحست الفتاة بالهوة السحيقة بين حياة رغدة خضراء فى مثل هذا المكان وحياة جدبة غبراء فى لندن .

ورغم أن السيد ستاندنج كان يناهز السبعين من عمره وقد ماتت عنه زوجته ، إلا أنه كان رقيقاً طيب القلب ، مرحاً يعرف كل جيرانه وقد حرص منذ أول ليلة ألا يدع للملل طريقاً إلى قلب نزيلته ، لذا كان قد أعد برنامجاً للدعوات والزيارات التى ستلهى كرستين أو من كان يظنها فيونا تشاليس . ولما خلت هى إلى نفسها فى الليل عاودها

التفكير فى ذلك الرجل الذى علمت من خلال أسئلتها لمضيفها أنه رجل لايمكن الاستغناء عنه ، ولهذا السبب لم يدعه السيد ستاندنج يلتحق بالخدمة العسكرية لأن إدارة المزارع الثلاث ، كما يرى السيد ستاندنج ، ليست أقل أهمية من حمل السلاح وإطلاق النيران فى وجه العدو الألمانى . يضاف إلى هذا حب فارلونج الشخصى للزراعة وتفوقه فى إدارة المزارع . لكن كرستين لم تر فى منع الفتى من حمل السلاح فى هذه الحرب إلا شوكة فى ظهر هذا الفتى اليافع الذى تراءى لعينيها جد مثير فى ثياب الجندية . لهذا قالت لمضيفها : لابد أن هذا هو سبب جفائه ؟ فقال لها السيد ستاندنج : لا تعبئى بذلك لأن مدعاة هذا الجفاء والجفاف الذى يصبغ كل تصرفاته ليست ظروف الحرب وحدها بل ظروف نشأته ككل . لقد كان المستقبل أمام فارلونج واعداً وهو ابن الطبيب الماهر فى قرية كارتمل ، لكن أمه اللعوب أفسدت كل هذا عندما هجرت زوجها وبيتها لترتمى فى أحضان شيطان مثلها ، وقد كان لذلك أثر لا يمحى على نفس الغلام الذى كره النساء جميعاً فى شخص أمه . ثم أضاف الرجل : لكننى دائماً أقول إنه سيتفوق على نفسه وينسى هذه الوخزة القاتلة ويتزوج . إننى جد محب له فهو إنسان طيب وقد تتعجبين حينما أقول لك كم من الكتب قرأ وكم من المعلومات يعرف بعيداً عن الزراعة . مارأيك فى أن يجول بك المزارع غداً ؟

– سأكون فى غاية الحبور .

ولم تستطع كرستين أن تبتعد عن التفكير فى «كاره النساء» الذى يعيش وحده فى مزرعة ستونهيد . لقد صارت أسيرة لتاريخ وشخص هذا الرجل الذى رأته اليوم لأول مرة فى حياتها .

فى الصباح طلب السيد ستاندنج من راعى أعماله أن يجول بـ«فيونا» المزارع ، وقد قبل ذلك على مضض ؛ لأنه جدّ مشغول بإدارة ثلاث مزارع ، كما أنه يرى فى ذلك مضيعة للوقت مع فتاة مجتمع هو على يقين أنه ليس لديها أدنى اهتمام بالطبيعة . وبعد أن تركهما المضيف أخذت كرستين تحيى فارلونج وكأن شيئاً من تلك المشاكسة لم يحدث بينهما بالأمس . لكنه كان يحس بالضيق لأنها سفهته بعدم إفصاحها عن شخصها .

فى الليلة الماضية حاول فارلونج أن ينسى هذه الفتاة ، لكنه دون أن يدرى أخذ يسترجع صوتها الرقيق وذراعها الطرية البضة تحت قبضة يده ، وعطرها الفواح ، وأهم من ذلك كله روح التحدى فى عينيها . واليوم هو لايملك إلا أن يقر بأنها جذابة . لكنها بدأت تثير غيظه عندما سألته :

– أهذا هو نوع الحذاء الذى يعجبك ياسيد فارلونج ؟

– إننى حين انتقدت الكعب العالى كنت أحسبك مزارعة ستعملين فى مزرعتى .

فهزت رأسها وهى تقول : لا أخالك أوتيت روح المرح .

إزداد وجهه الجميل المقطب احمراراً ثم قال بجفاء : هلمى لأريك مزرعة ستونهيد ، إن أردت صحبتى . انطلقت معه والابتسامة مرتسمة على وجهها ؛ ثم مالبثا أن نسيا ما بينهما من عداء وهى لاتفتأ تلتهم مبهورة مايلقيه عليها من شروح للعمل الجارى فى المزرعة . ولم يكن هو أقل انبهاراً لما يرى من توقد تلميذته واهتمامها بأدق التفاصيل . بعد كثير تجوال نظر فى ساعته وقال : الثانية عشرة والربع .

هل تسمحين لى بالذهاب إلى كارتمل ؟

– وأين هذه من هنا ؟

– حوالى عشرة أميال .

– لقد ذكرها لى العم بوب أمس . أليست ببقعة جميلة ؟

– لقد ولدت على أرضها وهى بالنسبة لى أعظم قرية فى العالم . كما أن لها أهميتها التاريخية وبها تحفة معمارية رائعة هى كنيسة كارتمل ومدخلها ذى القبة .

أثار ذلك حب كرستين القديم للمبانى الأثرية ، فقد كان جدها لأبيها آثارياً فذاً . لذا قالت بسرعة : الغداء لن يحين قبل الواحدة والنصف . فلتأخذنى معك لأرى كارتمل .

لقد سره منها ذلك لكن الحياء كان ينبو به عن الظهور فى صحبة ضيفة السيد ستاندنج فى مكان يعرفه الناس جميعاً . وقد عزم على أن يرفض ، لكن استعطافها له جعله من الفظاظة أن يفعل . وبعد دقائق كانت الفتاة إلى جواره يخترق بها الهضاب المنبسطة تظلهما شمس الظهيرة . وأعجبه منها أنها خيبت آماله بحديثها وأسئلتها وانبهارها بردوده ، إنه لم يتوقع ذلك من فتاة ظنها لاتعرف إلا سبيل اللهو والمرح ، وعندما احتضنت عيناها أول مشهد من القرية قالت : سلام على مهبط رأس السيد مارتن فارلونج ! نظر إليها فى شك . لقد أوتى روح المرح ، لكنها لم تصل فى نمائها وسط صخور حياته الجافة إلى ما وصلت إليه هذه الفتاة ، فكان يخشى أن الفتاة تسخر منه ، لكنها أردفت : إننى حقاً أحييها لسحرها ولكم أتمنى لو كنت ولدت فى أحضان هذه الجنة .

توقف مارتن أمام فندق «كنجز آرمز» ، فتح لها الباب ، واستأذنها فى مقابلة مُزارع هو على موعد معه ، فطمأنته بأنها ستقضى الوقت تشاهد جمال القرية . راعها منظر الكنيسة التى كانت على مرأى منها وبوابتها المُقبّاة التى كانت فى يوم من الأيام قلب الإقليم النابض كما أخبرها مارتن بعد عودته ، وأضاف : لقد ولدت فى أحد الأكواخ المواجهة لها وعندما تركت بوابتها مفتوحة صارت أنسب مكان للعب «الاستغماية» .

– إن سحرها ليربو عن أن يكفى الكلام عنه . هل لى بجولة فيها يوماً ما ؟

فقال بشىء من الشدة : لا بد أن السيد ستاندنج يستطيع أن يرتب لذلك .

فسألته فى خبث : أولاً تستطيع أنت ؟

لم يكن هناك رد . ياله من رجل صنديد صلب ، تنجرح اليد إن ارتطمت به ، ومع هذا فهو مثل هذه الآثار له سحره الدفين . عندما تركها فى نهاية الجولة على باب الضيعة شكرته بحرارة قائلة : لقد استمتعت بكل لحظة منها . أحس فارلونج صدق ماتقول . فلمس قبعته وانصرف . ودخلت كرستين لتجد مضيفها ينتظرها على الغداء فاعتذرت عن تأخرها وجلست إلى المنضدة تتناول الطعام وتمطره بعبارات الحب والثناء على كارتمل وعلى رفيق رحلتها كذلك .

مما جعل الرجل يتعجب من خشية أبيها عليها ونعتها بالتهور والطيش ، لكن ستاندنج يراها متزنة الطباع محبة للطبيعة ودودة لها . فقال : لقد زارها والدك ذات مرة وأعجب بها كثيراً .

لم يكن هذا التعليق إلا ليثير اشمئزاز كرستين من الدور الذى تقوم به ، إن الرجل يشير إلى صديقه السيد تشاليس وليس إلى أبيها هى ، لكم تمنت أن تقول له الحقيقة كاملة ، لكنها لم تملك إلا الصمت .

وأردف الرجل : لكنك اليوم صنعت معجزة بأن جعلت فارلونج يصحبك فى هذه الرحلة ، فهو ينأى دائماً بنفسه عن رفقة النساء . لكن لاتحاولى تحويل عقله فلن تفلحى .

– وقد أفلح . إنه شخصية متفردة . أليس كذلك ؟ أقصد أنه ليس مزارعاً بالمعنى المعروف . إنه يحفظ تاريخ كل مبنى مررنا به .

– أنتم أهل المدينة لديكم تصور خاطئ عن المزارعين فتظنونهم أجلاف غير متعلمين ولكم قابلت العديد منهم والذين لاتقل معرفتهم ببتهوفن ومايكل أنجلو عن معرفتهم بالحبوب والماشية .

– لكم أحب المزدرعات والمزارعين ولكم يثير مارتن اهتمامى .

– حسن ، ولكنه متقلّب ، وقد يستحيل اهتمامك إلى حنق . فهذا هو مارتن .

– إننى أستمتع بحياتى هنا .

– ولكم أنا سعيد لذلك مما سيشجعنى على الكتابة لوالدك .

فغرقت كرستين فى الصمت ثانية .

* * *

الفصل الثالث

لم تر «كرستين» مارتن فارلونج ما يقارب الأسبوع . ربما أنه يقصد ذلك ولا يبغى أن ينمى صداقة معها ! لكنها تذكرت أنها ليست «كرستين شو» بل هى كريمة السيد «تشاليس» وضيفة السيد «ستاندنج» الذى يعمل عنده «مارتن» ومن ثم فهو يرى نفسه فى مرتبة أدنى من مرتبتها . لكن طوال هذه الفترة لم يعترها الملل لأن المضيف كان حريصاً على إدخال السرور على قلب ابنة صديقه . وفى إحدى رحلاته الخلوية بها ، والطبيعة الغناء حولهما ، قالت كرستين مشدوهة : لا أتخيل أن يجرى المرء وراء حياة المدينة ويترك كل هذه الطبيعة .

فرد عليها المضيف قائلاً : لكن الوحشة قد تتملك الإنسان كما أن برودة الشتاء قارسة . فقالت كرستين مشدوهة : ما أجمل أن تتزوج الفتاة ممن تحب ولاتبالى بعد ذلك بالثلج يهبط عليها .

تبسم الرجل ولم ير فيها سوى طفلة رومانسية ، وكانت تطلع عليه كل يوم بما يدهشه ويخالف رأى والدها بأنها فتاة مدللة . وعلق قائلاً : لا أخال فيونا تشاليس خليقة بأن تتزوج الرجل الذى يعيش بها فوق جبل فى «وستمورلاند» ، بل الخليق بمقامها أن تكون فى «بارك لين» أو «فيلا» على نهر «الريفيرا» ، أليس كذلك ؟

عضت «كرستين» على شفتيها وأطرقت بنظرها بعيداً . إنها تمقت أن تكون هى «فيونا» «تشاليس» . فهى لا يتسنى لها العيش فى أى من المكانين ولن تتزوج الرجل الذى يعيش فى أى منهما كذلك . لكن أى رجل قابلته قد يرغب أن يشاركها هذه الخلوة الخلابة ؟ من المؤكد أنه ليس «كنث هول» زميلها فى المعسكر . ولاح لها «مارتن فارلونج» فى الأفق . هو يفعل !

انقضى الأسبوع فى زيارات لأصدقاء السيد «ستاندنج» المجاورين الذين استقبلوها بحفاوة بالغة أحست أنها ليست من حقها . فكانت تكتب الرسائل الطوال إلى «فيونا» وكذلك إلى صديقتها «باربرا» التى لم تبارك هذه التمثيلية وحاولت جاهدة أن تثنى «كرستين» عنها دون جدوى . وتلقت «كرستين» رسالتين من فيونا تصف سعادتها الغامرة ثم برقية تعلن أنها أصبحت مدام «بيتر هوليز» وأنها وزوجها أسعد اثنين فى العالم والفضل لكرستين .

وقد ساعدتها هذه الأنباء على التجلد فيما هى بصدده من تمثيل مقيت .

لم تجد كرستين بداً من أن تسير هى نحو «ستونهيد» لترى «فارلونج» ، وقد بدا عليه عندما قابلته أنه كان فى غاية الانشغال . عندما رآها فارلونج مد يده إلى قبعته تحية وكان سيسير فى طريقه لكن «كرستين» استوقفته قائلة : لقد أخبرنى العم بوب أنكم ستزرعون

قمح الشتاء فهل لى الحضور والمشاهدة ؟ وكان رده عليها بحفاوة باردة أثارت فيها التحدى عندما قال لها : تصرفى كما يحلو لك تماماً . فسألته : أو لن تصحبنى لمشاهدة المزارع الثلاث ؟ ضرب حذاءه بسوطه وقال : اسمحى لى بالاعتذار فالنهار يقصر وأنا لدى الكثير من العمل . حقاً ليس عندى وقت لهذه الجولات .

– واه من جفاف طبعك !

– أعتذر . قالها بصوت لايكاد يبين إلا عن قليل أسف ، ومضى .

وطفقت كرستين تنظر إلى الشبح الطويل وهو يختفى ويظهر بدلاً منه شعور بالإحباط . إنها فى حياتها لم تقابل شخصاً كهذا . هناك شىء لاتعرفه يجذبها إليه ، ولا تستطيع أن تبعده عن تفكيرها ومع هذا فهى تكره تلك الغطرسة . لقد أثار فيها رغبة محمومة لتجعله يميل إليها ويرق . كذلك هى لاتملك إلا أن تعجب ببراعته الإدارية و.. وكبريائه ، فهو لا يحاول أن يتملقها لمجرد أنها أعلى منه مكانة أو لأنها صديقة شخصية لربيب نعمته .

فى الصباح التالى خرج روبرت ستاندنج وكان قد عرض أن يوفر لضيفته الرفقة لكنها آثرت الوحدة وقررت أن تذهب إلى «ستاك إند» ثم إلى «برنت هولو» وهى من المزارع التى يديرها مارتن . فهى تستطيع أن تشاهد مايجرى بنفسها مادام هو لن يصحبها . إنها حقاً تحس بالإنتعاش فى هذه الدعة والطعام الوفير والطبيعة الأخاذة ، كما

أن هذه البقعة من الأرض تكاد لاتشعر فيها بوطأة الحرب الدائرة .
لقد تلقت رسالة من «فيونا» تقول فيها : « إننى فوق ذرا السعادة . استمرى فى تمثيل دورى فترة أخرى قصيرة ، ولا تسأمى الحياة هناك » . لكنها الآن تتمنى ألا ينتهى الأمر ، خاصة كلّما لاحت لها صورة لندن ملونة باللون الرمادى . وفى الطريق قابلت «مولى ديكون» تقود كراجة محملة بالسلجم ، توقفت الفتاة لتسلم على «كرستين» والشحوب والعرق باديان على وجهها . لما علمت «كرستين» أنها تتألم من جنبها وتشك فى أن تكون الزائدة الدودية ، أخذتها مباشرة إلى «إيمى» لتطلب لها الطبيب . لكن «مولى» كانت قلقة بشأن الحمولة التى أمرها السيد «فارلونج» بتوصيلها إلى حظيرة الماشية فتطوعت «كرستين» بتوصيلها رغم عجب الجميع لذلك .
كانت تخال الأمر يسيراً بعد أن ارتدت البنطال القصير يعلوه قميص وتغطى رأسها قبعة مولى البالية . أستحثت الخيل حداثة اليد التى تقودها فأخذت تخب فتتراقص الحمولة ومعها «كرستين» إلى أن انكفأت على الأرض لتجد نفسها عند أقدام «فارلونج» الذى رأى المشهد من بعيد وحضر لاستكشافه متأخراً . وكانت قد تكومت لاتكاد تدرك ما حدث . قال فارلونج ساخطاً وهو لم يتعرف على الفتاة : هؤلاء المزارعات الحمقاوات اللعينات ، لايستطعن حتى قيادة زوج من الخيل !

ثم عاون الفتاة على الاعتدال ليرى إن كانت قد أصيبت فإذا بها «فيونا تشاليس» ! وقف مبهوراً للحظة ، ماذا تفعل هنا وفى هذه الثياب؟! ولمح بقعة صغيرة من الدم على جبينها فجثا على ركبتيه وأخذ يهفهف على الجرح بقبعتها البالية التى سقطت منها . ازدادت ضربات قلبه وهو يحدج فى هذا الجسم الجميل الصغير ، ذلك النحر البرونزى والشفاة الزهرية الحمراء التى انفرجت قليلاً وكأنها تتأهب للكلام ، وعلم أن رغم تباينه الظاهرى مع تلك الفتاة إلا أن لها تأثيراً عجيباً مزعجاً عليه . لقد تملكته رغبة عارمة أن يطوقها بذراعيه ويقبل ذلك الفم المحمر الذى طالما تحداه وسخر منه . ثم أحست «كرستين» بيديه تفركان يدها وسمعته يقول : هيا آنسة «تشاليس» انهضى . كان يبدو على صوته القلق ، لمسة يديه جدّ رقيقة ، فقد نسى القسوة والسخرية . ربما كان قلقاً بشأنها حقاً . لكنها لم تصب بشىء سوى ذلك الخدش وصدمة السقوط ذاتها . وشعرت للحظة أنها تحس بكل كيانها بتلك اليد التى تمنت أن تظل أبد الدهر ممسكة بيدها مدللة إياها ، وتمنت أن تزداد قرباً من ذلك الوجه الرقيق الجامد الذى ترى فيه عينين زرقاوين عجيبتين . وانزلق الصوت من بين شفتيه وهو لايدرى : فيونا ! فيونا ! هل أنت بخير ؟

رغم أن هذا الاسم ليس من حقها إلا أنها أحسّت بالحيرة الشديدة لاستخدامه إياه . فتحت عينيها وابتسمت إليه . فجأة تقهقر إلى الوراء وكأن زنبوراً لدغه ثم قال بشىء من الغضب : أيتها الحمقاء

الصغيرة . كنت ستحطمين رأس فرسين كبيرين ، ورأسك كذلك ، ماذا تفعلين هنا بحق الشيطان وأنت على هذه الحال ؟

جلست «كرستين» ببطء وقد فارقت الابتسامة وجهها ومعها تلك النشوة التى تملكتها لحظة . لافائدة من أن تقنع نفسها بأن فارلونج يهتم بها أو أنه كان مضطرباً من أجلها . لم يكن سوى وحش فظ . مرّرت يداً على خدها فوجدت أثر دم وغبار على يدها فاستطاعت أن تخال صورة وجهها مما جعلها تمقت الطريقة التى صوب بها نظره إليها . فقررت الرد : أهذا جزاء من يحاول تأدية عمل من أجلك ؟

– من طلب منك ذلك ؟

– لا أحد . لقد أخذته على عاتقى لأن «مولى» داهمها الألم وستحتاج إلى أن تنقل إلى المستشفى لإجراء عملية الزائدة !

امتدت يد «فارلونج» إلى الجواد الذى بجواره وازدادت حدة نظرته وهو يقول : سيتسبب هذا فى إضطراب كبير فى العمل !

نهضت «كرستين» ونفضت الغبار عن بنطالها وتقطب وجهها لرؤية ردنها (كمها) الممزق ثم صرخت فى وجهه : لست بآدمى ! إنك لاتفكر فى شىء سوى العمل ، العمل ! إنك لست حزيناً لأن المسكينة مريضة بل لأنها ستسبب نقصاً فى الأيدى العاملة !

اشتعل وجهه باللون القرمزى . هذه الفتاة تنال منه دوماً وفى كل مرة تصوب سهمها إلى هدف جديد . إنها على حق فيما تقول فحياته

كلها موهوبة للمزارع ونمائها . ليس هذا بآدمى ! لكن ليس هذا هو كل ما فى الأمر . فما حقها فى توجيه مثل هذا الاتهام ؟ وما حقها فى أن تأتى إلى «ستونهيد» وتحيل طمأنينته إلى قلق ؟ لقد أحس بالخجل من تلك اللحظة التى شخصت فيها آدميته أيما شخوص وزادت من دقات قلبه ، عندما انحنى إليها وكان شديد القرب من لهيب شفتيها .

– إننى جد آسف لمرض مولى .

ضحكت كرستين ضحكة قصيرة وقالت : – وأعتقد أنه يجب علىّ أيضاً أن أقول : إننى آسفة لعدم مقدرتى السيطرة على الكراجة . أكاد أجزم أننى ماهرة فى قيادة سيارة عن التحكم فى الخيول . نظر إليها نظرة سريعة حتى لاتحس بمنظرها وقد خدش خدها وجلط مرفقها ، وأخرج منديلاً من جيبه قائلاً : من حسن الطالع أن هذا المنديل نظيف ، فقد تودين ربط ذراعك به .

قالت : ليس هذا بشىء . ومع ذلك أخذت المنديل وحاولت أن تصنع منه ضمادة ، ثم تطوع ليربط لها المرفق فوافقت مبتسمة لارتباكه ، لكنها عادت تلاحظ رقة أصابعه . يالها من أصابع أحسن الخالق تشكيلها ! إنها ليست تلك اليد الخشنة الضخمة التى يخالها المرء لفلاح . كما لاحظت جمال خطوط جسمه رغم طوله . وذاب الثلج بينهما .

– هيا اقفزى إلى الكراجة وسوف أقودها إلى الحظيرة ثم أعود بك إلى ويكام بسيارتى .

سأحضر إلى الحظيرة لكننى لن أعود إلى البيت . فأنا هنا مكان «مولى» ولن أعود القهقرى لمجرد زلة بسيطة . من المؤكد أنك تستطيع أن تجد لى وظيفة أؤديها بنجاح أفضل . تردّد مارتن وأخذ ينظر إليها فى عجب ، وأحست هى أنه لايدرى مايفعل معها فقالت لنفسها : ياله من مسكين . إنه مكبل فى أغلاله قليل الخبرة بالنساء ! فأضافت : بصراحة هناك مهمة أستطيع القيام بها ، حقاً أنا لم أشتغل فى مزرعة أبداً لكننى أستطيع الكتابة على الآلة الكاتبة .

ثم راجعت نفسها وأحست بما كانت على وشك أن تقع فيه فاحمر وجهها وجف حلقها . إنه يعرف فيها الآنسة «تشاليس» الثرية لا تلك الفتاة التى تكد من أجل لقمة العيش . حملق فيها ولم يدرك سبب تلعثمها فقال : إن كتابة خطاب من حين لآخر لايجعلك مناسبة للعمل فى مزرعة . ومع هذا فهو شىء طيب منك أن تعرضى العمل . غاب عنها الارتباك وظهر التحدى ثانية ؛ لأنه يقول ضمناً : إنها لاتستطيع القيام بشىء ، فأمالت رأسها وقالت :

إننى أصر على القيام بعمل «مولى ديكون» .

هز الرجل كتفيه وقال : كما ترغبين . لكننى أعتقد أن السيد «ستاندنج» لن يرى ذلك مناسباً لك .. فردت عليه : سأفعل ما يحلو لى .

– إذن ، فلتقفزى إلى الكراجة .

كان من الصعب عليها ذلك وقد تجمدت ضلوعها بعد سقوطها لكنها حاولت جهدها ألا يحس «مارتن» بذلك . وبعد قليل كانا متجاورين فوق الكراجة يداعب النسيم خصلات شعرها وتقبل الشمس مابدا من جسمها . يالروعة الطبيعة هنا . لكم تحب أن تعيش هنا إلى الأبد ، ليس فى ثياب كريمة السيد «تشاليس» ولكن فى ثياب «مولى ديكون» المزارعة ، فهذا شىء فيه من المتعة وسمو الهدف مايجعلها ترنو إليه . من المتعة أن تزرع وتحصد الأرض التى خلقت منها وأن تراها تنفرج عن حياة جديدة . لابد أن هذا هو سبب ارتباط «مارتن» الشديد بالأرض . ونظرت كيف تنقاد الخيل فى سهولة ويسر لحركة يده . فجأة قفز أرنب برى إلى الطريق فصرخت : حاذر أن تدوسه . فضحك «مارتن» ، وكانت أول مرة تسمعه يضحك بهذا الصوت الجميل ، كم كانت عيناه الزرقاوتان جميلتان وكم كان فاه جميلا عندما تحلل من جموده ! ثم سألته : لماذا تضحك ؟

– أضحك على مزارعة تخشى أن تدوس أرنباً !

تغير لونها وقالت : لاأحب قتل الأشياء .

– ولاأنا . لكن الفلاح يعتاد ذلك فالأرانب تأكل الأخضر واليابس .

– رغم ذلك فإننى لاأحب أن أدوس أحدها . لقد كان لدى أرنب مستأنس وأنا طفلة .

فقال : وكذلك أنا . لكن الإنسان يغير تفكيره عندما ينضج .

– لكننى أبداً لن أحب رؤية كائن صغير تلتهب فيه حرارة الحياة تُغتصب حياته .

صوّب «فارلونج» ضربة خفيفة بسوطه تجاه الخيل ثم نظر إلى الفتاة بجواره . لم يكرهها لهذه الرقة ، بل انتعشت ذاكرته بصورة غلام يدعى مارتن فارلونج ركل غلاماً آخر لتعذيب قطة صغيرة ثم تلقى هو الضرب بسعادة من أمه لركل رفيقه ، ومع ذلك قرر ألا يعذب حيواناً قط . تمنى ألا يكون قاسياً ، لكن المؤكد أن فلاحاً لن يجد الوقت ليعبأ بأرنب ميت ، إنه حينما فكر فى الآنسة تشاليس فكر فيها كفتاة مجتمع مدللة لكنه اليوم لايجد علاقة بين هذه الفتاة وتلك التى كانت فى مخيلته . فالأخرى كانت ستهرع إلى البيت باكية بعد هذا الحادث ، تلازم الفراش وتقضى يومها فى مطالعة المجلات وتناول الشيكولاته ، لكن هذه الفتاة تصمم على المهمة التى ألصقت نفسها بها . إنه لايزال يسمع صدى كلماتها الأخيرة ، ورقة صوتها وهى تقول «كائن صغير تلتهب فيه حرارة الحياة» . ربما كانت تصف نفسها . إنها دافئة ملتهبة وكأنها مرآة تعكس لهيب الشمس وتضيف إليه لهيباً آخر ، وهذا الشعر المتموج الذى يلف دماغها وقد أخذ لون

الشجر يقف على الشاطئ ، وتلك العيون اللامعة ! إن الرجل لايتمنى أن يتناول هذا النحر الطرى الأسمر ويلويه حتى تخرج الحياة منه . كلا ! إنما يتمنى أن يغور وجهه بين جدباته ، ويعتصر ذلك الفم المتفاخر حتى يجهز على غروره ويطلب المزيد .

ثم أحس بالحنق من نفسه على هذه الأفكار ، ومنها أن أثارتها فى نفسه . إنها تصر على إقحام نفسها فى حياته وزعزعة طمأنينته . عليه أن يبدى لها أنها لاتستطيع العبث داخل هذا الحزام الأمنى . إن كانت ستؤدى عمل «مولى» فلتفعل ذلك فقط . قاد الكراجة إلى داخل الحظيرة ثم قفز وقفزت هى وراءه دون مساعدته ثم التفت إليها قائلاً فى جفاف : هل تستطيعين إنزال السلجم وتحزيمه ؟

– بالتأكيد

– بعد ذلك يحين وقت الغداء ثم هناك خليط يُعد للثيران . سأكون أنا فى «برنت هولو» لكن جورج يستطيع أن يريك أين ذلك .

– أشكرك . قالتها وهى تدرك أن لحظة الود بينهما قد انتهت . إنها لأسرع من وميض البرق . كم كانت تتمنى أن تسمع صوته وتنصت لآرائه لكنه إن كان يشتاق لدور الرئيس فإنها لن تشتكى .

– فقط سأذهب إلى البيت لأغيّر القميص وأغسل وجهى ، إن لم يكن لديك مانع !!

– حسناً ، لكن لاتشغلى البال بالمساحيق هنا .

صرخت فى وجهه : إنك تأبى إلا أن تكون عدوانياً !

– لقد قلت أننى لم أوت روح المرح ؟ فأين روحك ؟

قالها ضاحكاً ثم مضى وهو يصفر .

طفقت تنظر خلفه ويداها مطبقتان . لم تقابل قط فى حياتها رجلاً له هذه القدرة على إغاظتها وإثارة كل أحاسيس الطفولة فيها . لكنها ستقوم بهذا العمل وتريه أنها تستطيع ذلك .

بدأ الظلام يحل قبل أن تنتهى من عملها الذى كان فى الأصل عمل «مولى» . وقفت خارج الحظيرة التى كانت تطعم فيها مئات الخنازير . لم يحدث قط فى حياتها أن قامت بهذا الجهد البدنى الذى تركها خدرة الأوصال . إنها لم تتوقف عن العمل منذ أن تناولت غداءً سريعاً فى الضيعة . وقفت تمسح يديها بمنديل ثم فزعت لمنظر أظافرها التى انثنت وتكسرت . لاطلاء بعد اليوم ! لأول مرة فى حياتها يسيل العرق على وجنتيها . إن أقصى ما تهفو إليه نفسها الآن هو حمام دافئ . بعد ذلك سمعت وقع أقدام تكاد تخترق الأرض فى كل خطوة . التفتت لتجد «مارتن» أمامها . فقالت : إن لم يكن هناك شىء آخر أقوم به فإننى أود الرحيل .

نظر إليها وكأنه دهش لوجودها كما أنه لم يكد يتعرّف عليها تحت ظلمة الغسق لكنه بعد اقترابه تبين مدى إرهاقها ورأى كذلك أنفها اللامع وشفتيها بلونهما القرمزى الطبيعى . لكم أحبها هكذا !

– يجب أن تعودى إلى البيت فأنت فى غاية التعب على مايبدو .

– مطلقاً . لو أن هناك عملاً آخر فسوف أقوم به .

– لقد قمت بما يكفى اليوم . شكراً . وقد أخبرنى «جورج» لتوه أنك قمت بعمل جيد .

– شكراً لجورج على هذا الإطراء .

– كذلك لايجب أن تقفى عرضة لهواء الليل البارد والعرق يتصبب منك . اتسعت عيناها وهى تقول : لاتقل لى أنك تمرّض فتياتك بهذه الرقة !

– يبدو أنك تظنيننى متنمّر من الدرجة الأولى . لكننى أؤكد لك أن هذا ليس سمتى . إننى أنتظر أن يقوم الناس بعملهم لكننى لاأطلب المزيد ولا أرضى بأن يعرضوا أنفسهم لبرد يمكن تجنبه .

– حسناً سأذهب إلى الضيعة . عمت مساءاً .

فقال بسرعة : سأحضر السيارة لأوصلك .

– هذا عطف منك . لكنها لاتزيد على عشر دقائق من السير . وفّر البنزين . فقال بعنف : سوف أوصلك . قالها وسار ناحية المرأب (الجاراج) .

وقفت ترتعش قليلاً ورياح الليل تلفحها والظلام يزداد حلكة . إنها لاتعرف لماذا يريد «مارتن» أن يأتى بالسيارة إلا إن كان يريد أن يؤدى صنيعاً للآنسة «تشاليس» ، لابد أن السيد «ستاندنج» قد عاد إلى

المنزل الآن وسوف يسعد باحتفاء راعى أعماله بضيفته . ثم أبعدت تلك الفكرة . ليس هذا طبع «فارلونج» . إنه لسبب ما يحس إرهاقها ويشفق عليها . وقد كانت بحق فى أشد الحاجة لذلك فقد كانت لاتستطيع السير ولو لبضع دقائق .

توقفت السيارة «الفورد» فى نفس اللحظة التى توقفت فيها سيارة السيد «ستاندنج» «الليموزين» ، حيّاهما الرجل ثم طفق يحدج النظر فى ضيفته وهو يقول ضاحكاً : ياإلهى ، ماذا كنت تفعلين أيتها الصغيرة العزيزة «فيونا» ؟

– لقد داهم المرض «مولى» ، بل إن الطبيب نقلها إلى المستشفى ظهيرة اليوم وكان علىّ أن أقوم بعملها لقلة اليد العاملة لدى السيد «فارلونج» .

– كم أنا مزهو . ومارأى فارلونج فى ذلك ؟ أجعلتها تنشر العطر على الثيران ؟

رد فارلونج قائلاً : الحقيقة أنها أدت عمل يوم شاق .

دهشت كرستين للمديح وسعدت به . ثم قال السيد ستاندنج : هيا لنتناول العشاء معنا الليلة ، فهناك بعض الأعمال سنتحدث عنها .

لم يكن فارلونج يبغى القبول ؛ لأن قضاء الأمسية مع رب العمل شىء ، وقضاؤها مع تلك الفتاة كثالث لهما شىء آخر . إنها كثيرة

الإزعاج له وقد وجد نفسه تتأرجح بين رغبته فى التلطف معها وكونه مغيظاً لها كما اتهمته . لكنه فى النهاية اضطر أن يقبل قائلاً : حسناً . سأغير ملابسى وأعود .

داخل الضيعة كان النور والدفء يحلان بالبيت ، وأخذ المضيف يمازح ضيفته لما تقوم به ، ويخشى أن تفسد يديها خاصة أن أباها قد أبرق يقول : إن العمل قد يمتد به حتى عيد الميلاد (الكريسماس) . فأطرقت «كرستين» وهى تعض على شفتيها . آه لو يعلم أن الأمر لن يطول بها وأنه يتوقف على «بيتر» وسفره .

فبمجرد أن يسافر «بيتر» ستأتى «فيونا» وينتهى الأمر ! كذلك شعرت بالبؤس والشقاء لما سيكون عليه هذا الرجل وراعى أعماله عندما ينكشف الأمر .

أخذت تعزى نفسها بالسعادة التى تعيش فيها «فيونا» والمعروف الذى تسديه إليها بهذا التشخيص الذى تقوم به .

انتهت «كرستين» من حمامها الدافئ وغيرت ملابسها ثم نزلت لتجد «فارلونج» والسيد «ستاندنج» يتناولان الشاى فى المكتبة وقد وقف الرجلان عند دخولها . كان على «مارتن» أن يقر أنها فتاة فواحة الجمال تلك التى تدخل عليهما فى فستانها الحريرى المحكم على جسدها الجميل وشعرها المصفف بعناية ولمسة ذوق رقيقة فى قرطها الذهبى ، وذلك العقد الذى يلتف حول نحرها . نعم أقر بأناقتها لكن

مخيلته كانت لاتزال تحمل صورة تلك المزارعة المغبرة التى تكسو بقع الدم وجنتها ومرفقها . تلك كانت «فيونا» التى يستطيع أن يتعامل معها .. أما هذه فكانت كريمة السيد «تشاليس» الفاتنة التى لايكاد يجرؤ على التحدث إليها .

كذلك نظرت «كرستين» فى إستحسان إلى شخص لم تره من قبل يرتدى بذلة رمادية داكنة وياقة حريرية بيضاء تظهر بجلاء سمرة لونه . بل إنه لم يبد غريباً فى تلك الهيئة فكان كمن ينام ويصحو بها . رغم كل هذا ، كان هناك من عدم الراحة بينهما فى هذا الجو الذى رأته «كرستين» عالماً غير حقيقى . على العشاء كان يحادثها بطريقة رسمية وبمنتهى الاحترام . لكن النظرات كانت تتقابل من حين لآخر ، وتحس «كرستين» تلك الجاذبية وتحس معها الهوة التى بينهما . بطريقة ماسوف تتخطاها ، بل ربما هو يبغى ذلك أيضاً ، لكن ...

انتهى العشاء وانتقلوا لتناول القهوة أمام المدفأة . ثم تطرق الحديث إلى قنبلة قد سقطت على قرية «كارتمل» والتى لم تكن مقصودة بها .

هنا أخذت «كرستين» تظهر الفرق بين الحياة هنا وكأن لاحرب دائرة والحياة فى «لندن» ، وكاد يزل لسانها ثانية وتقول : إنها تقطن شقة فى «وروبك» لكنها عادت فأصلحت من أمرها . فى الوقت ذاته

كان «مارتن» يتخيل هذه الفتاة التى راعها أن تدوس أرنباً صغيراً وسط دخان القنابل والمدافع . ساعتها أحس بالحمية وتمنى أن يرتدى الزى العسكرى ويصب جام غضبه على النازيين .

فجأة تذكر السيد «ستاندنج» شيئاً فقال : هل رأيت الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

– كلا . لم أعلم بشأنه . بعد لحظات كان الخطاب يقدم لها على صينية من الفضة . وقد لمح الرجلان طابع البريد الأمريكى فقال السيد ستاندنج : إنه أول خطاب لك من والدك . هيا فضيه وأسمعينى ماكتب والدك .

طفقت كرستين تتحول من السخونة إلى البرودة ، تحرق خداها ولم تستطع النظر إلى أى من الرجلين . أنى لها أن تفتح خطاباً شخصياً من رجل إلى ابنته ؟

أحست أنها فى مأزق وعينا «فارلونج» تخترقانها . فاضطرت أن تفعل ما تكره وتقول : لا ! سأقرؤه فيما بعد .. كى .. كى أقف عند كل كلمة من أبى العزيز . سأقول لك الأخبار غداً .

وتعجب روبرت ستاندنج : يالك من فتاة غريبة أخال من الصعب على من هم فى مرحلة الشباب ألا يفتكوا بالخطاب بمجرد وصوله .

لكن «فارلونج» الذى كان لايزال مشاهداً أحس بأنها تخفى شيئاً ما .

أرادت «كرستين» أن تغيّر مجرى الحديث إلى الحرب وأخبارها ثانية ، لكن ذلك جعل «فارلونج» يغوص فى صمت رهيب فإن ذكر الحرب دائماً يشعره بالمرارة .

ثم عاد السيد «ستاندنج» يسأل عن صديقه وهو يشعل سيجاراً : إن أباك سيزور «واشنطن» . أليس كذلك ياعزيزتى ؟

– سأخبرك بكل شىء على الإفطار . وعلىّ أن أكتب له بأخبارى كذلك .

– حسناً ، أنا الآخر سأبعث له برسالة غداً ، فلأبعث الرسالتين معاً بالبريد الجوى . فهذا أسرع .

ارتعش فؤاد الفتاة ثانية فالأمر يزداد تعقيداً ؛ لأنها لا تستطيع أن تكتب للسيد «تشاليس» قبل أن يصلها خطاب من «فيونا» أولاً . عليها إذن أن تختلق عذراً فى الغد لعدم الكتابة «لأبيها» ، لكم يثقل عليها هذا الخداع . نهضت وطفقت تجول الحجرة فى قلق . إنها ليست من ذلك النوع الذى يقوم بالتمثيل . وهناك فى أعماق نفسها شىء يثور ضد هذه التمثيلية . فجأة قالت : العم بوب ، هل تمانع فى أن أدخل مكتبك وأستخدم الهاتف (التليفون) لأطلب صديقة لى فى الجنوب ؟

– ليس من مانع على الإطلاق ياعزيزتى .

وأخذ مارتن ينظر إلى الشبح الرشيق للفتاة يبتلعه فراغ المكتب ، ثم أحس وكأنه يتنفس الصعداء بعد أن تركته الفتاة فهو دائماً يحس بالتوتر عندما تعترض طريقه ، ويحس كذلك بفتنة الأنثى . وأخذ الحديث يدور مع السيد ستاندنج فى أمور تخص العمل .

بضع دقائق من القلق وجاء صوت «فيونا» فبادرتها «كرستين» باقتضاب : أرجو أن تعلمى يا صديقتى أننى لاأستطيع أن أتحمل المزيد .

وردت فيونا بصوت يملؤه القلق : لكن .. عليك التجلد ياعزيزتى .. حتى يرحل «بيتر» .

– ومتى يرحل «بيتر» ؟

– إنه ينتظر الرحيل كل يوم .

– لكن هذا قد يعنى أسابيع وشهور . هذا حال الجيش .

– عزيزتى ، إننا فى سعادة غامرة ستتحول إلى كرب عظيم إن أنا جئت وكشفت النقاب عن الحقيقة . فلتتحملى قليلاً .

– إننى أمقت ذلك التمثيل .

– ماذا حدث لهذا القلق ؟

– لاشيء .. وكل شيء !

– أهناك من رجل فى الأمر ؟

ضحكت «كرستين» قليلاً . رجل ما ! لا ليس هذا هو السبب .. ومع هذا فهى تكره أن تواجه «مارتن فارلونج» بما ارتكبت .

واستمرت فيونا تتوسل : إننا فى كل ليلة ندعو لك ياعزيزتى . إنك لاتدركين معنى الزواج بمن تحبين . لقد تغيّرت تماماً . إننى أحيا من أجل «بيتر» وتزداد معزته لدى كل دقيقة . ألا تستطيعين تفهّم ذلك ؟

– آه . أظن ذلك . لكن الأمر صعب جداً . الرسائل و ... وكل شيء .

– تجلّدى قليلاً . «بيتر» سيرحل قريباً وأنا لابد أن أكون إلى جواره .

سمعت «كرستين» صوتاً آخر يقول : انتهت المكالمة . وانقطع الحديث بعد أن قالت «فيونا» : وداعاً ياحبيبتى وأرجو أن تصبرى من أجلى !

عادت «كرستين» وقد هدأ روعها قليلاً لأنها أخذت تفكر فى الأمر برومانسية . ثم ... لقد سارت خطوات غير قليلة فلم القلق الآن ؟ دعى الأمور تسير كما تشاء . إنها كذلك تستمتع بكل دقيقة هنا

وتستمتع بالعمل فى المزرعة . وسمعت السيد «ستاندنج» يقول : مارتن سيرحل ؛ لأنه ينام مبكراً ويستيقظ مبكراً .

فقالت كرستين وهى تبتسم ابتسامة خافتة : علىّ أن أفعل كذلك . متى يجب أن أبدأ العمل ياسيد «فارلونج» ؟

نظر إليها نظرة ارتياك قائلاً : أمتيقنة أنك تودين الاستمرار ؟

– حق اليقين .

– أعتقد أنه علىّ أن أبحث عن فتاة أخرى للعمل .

التفتت كرستين إلى السيد «ستاندنج» متوسلة : لا تدعه يفعل ذلك يا عم «بوب» . إننى أحب العمل ولن أطلب أجراً . سيزيد هذا من الأرباح !

– مادمت ترغبين ذلك فليكن . هلا أبقيت على عمل هذه الفتاة الجميلة يا فارلونج ؟

رأت «كرستين» الدم يصعد إلى وجه «فارلونج» وهو يتجنّب عينيها قائلاً : كما تريد يا سيدى .

أحست «كرستين» بالضجر منه . لقد أبان أنه لا يريدها بالقرب منه . فإن كان الأمر كذلك فسوف تذهب – رغماً عنه .

أصرت سائلة : متى تريدنى ؟

– إن كنت ستقومين بدور «مولى» فهى تحضر إلى الحظيرة فى السادسة والنصف . لكن هذا قد يكون وقتاً مبكراً بالنسبة لك يا آنسة «تشاليس» .

– بل سأكون هناك فى السادسة والنصف .

تركت كرستين رسالة للخدم لإيقاظها فى السادسة إلا الربع لكن ما حدث أن الخادمة التى تلقت الأمر تأخرت فى النوم ولم توقظها إلا فى السابعة . زمجرت قليلاً ثم التهمت إفطاراً سريعاً وهرولت إلى الحظيرة وهى ترتدى ممطراً معطفاً وقبعة مولى البالية للوقاية من المطر . عندما وصلت إلى الحظيرة كانت عملية الحلب قد انتهت وكان «مارتن» يرتدى معطفاً سميكا ويتحدث إلى أحد العاملين . خلع قبعته وحيّاها دون أن يبتسم عندما رآها . وقبل أن يتحدث قالت له : أعرف أنك تظننى لم أتحمل الاستيقاظ فى ساعة مبكرة لكنك مخطئ ! لقد نسيت الخادمة أن توقظنى ، وأنا لا يقل ضيقى بهذا عن ضيقك .

خرج العامل وتركهما وحدهما . نظر «مارتن» إلى الفتاة بابتسامة فاترة ساخرة ويداه فى جيبى معطفه ثم قال : لست غاضباً يا آنسة . إن ما تفعلين لا يخصنى ولك الحق أن تقضى الصباح كله فى مضجعك ، إن أردت .

اندفعت مغتاظة : لا تكن كريهاً هكذا . تعلم أننى أريد أن أقوم بعمل «مولى» على النحو الصحيح .

هز كتفيه وهو ينظر إلى السماء التى كانت تضع حاجباً من المطر بينهما .

– اليوم غير مناسب لك ، لكن إن كنت عازمة فلتقومى بعمل الخليط للخنازير فهذه مهمة داخلية .

ردت وقد تحول لونها إلى القرمزى : لا أريد عملاً داخلياً وأستطيع أن أتحمل المطر !

– إن كنت ستقومين بدور «مولى» فعليك طاعة الأوامر .

ذلك الصنديد دائماً على حق . كانت هناك لحظات تسأل نفسها إن كان حقاً قد أخذ رأسها إلى صدره ونادى باسمها فى قلق بالأمس أم كان حلماً . دون أن تنبس بكلمة أخرى استدارت متجهة إلى إحدى الحظائر .

طفق ينظر إلى ذلك الجسم الصغير المبتل بماء المطر ثم حلت ابتسامة عريضة بالوجه أذابت قسوته . يالها من فتاة عجيبة ! إنها مثله لا تستسلم بسهولة ! لكم يحترم روحها العنيدة هذه . مع ذلك فقد رآها جميلة لطيفة جداً ، وكلما عجلت بالابتعاد عن مملكته كلماً كان أفضل .

* * *

الفصل الرابع

لم يتقابلا فى ذلك اليوم إلا عرضاً ولم تسترح هى إلا مع العمال .

بعد الغداء تحدث إليها مارتن سائلاً : تقولين إنك تستطيعين قيادة السيارات ؟ مسحت كرستين بظهر يدها الصغيرة المتسخة العرق من على جبينها وأومأت أن نعم .

– إذن يمكنك القيام بالعمل على الشاحنة بدلاً من «باستابل» صباح الغد ، فأنا أريده لمهمة أخرى . ستأخذين أوعية اللبن عبر الطريق الرئيسية حتى تصلى إلى رصيف تتركينها عنده .

– حسن .. سيدى .

– أرجو ألا تنادينى بـ«سيدى» .

– إذن فلا تنادنى بـ «الآنسة تشاليس» وأنا أعمل عندك .

فقال بارتباك : لا أعتقد أنه من الصواب أن أناديك بـ«فيونا» فقط. تطلعت فى وجهه الذى كاد يعبق بالود وتمنت أن تطلب منه نداءها بـ «كرستين» لكنها قالت : «فيونا» يكفى تماماً .

وأطرق . إنه يحب هذا الاسم ولطالما يحمل هذا الاسم جاذبية لأذنيه مثل ما للفتاة ذاتها . وعادت تتحدث متسائلة : من سيأخذ الأوعية من على الرصيف ؟

– عمال «أول جود» وهو مصنع شوكولاتة كبير يشترى الكثير من ألباننا .

– ياله من شيء مدهش لطالما أكلت الكثير من هذه الشوكولا ، لكننى لم أخل أن أحمل اللبن الذى تصنع منه .

– حسن . يقال : إن الحكومة ستقتصد فى الشوكولاتة واللبن كذلك .

أحست «كرستين» بالسعادة لأن يناقش معها أموراً كهذه . لكن سرعان ما لقيت هذه السعادة حتفها ، إذ نظر إليها فجأة قائلاً : تصبحين على خير ، ومضى .

بينما كانت هى تشق غسق الليل إلى الضيعة كان هو يتجه إلى «ستونهيد» وقد خارت قواه . ليس السبب بدنياً فحسب بل ذهنياً كذلك. صحيح أن بسبب هذا الإهاق الذهنى كان فى الظاهر هو إدارة المزارع الثلاث وظروف الحرب الراهنة وحياته هو ، لكن تلك الفتاة التى دخلت حياته مؤخراً كان لها نصيب كذلك . لم يسمح لامرأة أبداً أن تدخل حياته فهو لا يثق فيهن . وكلما زاد جمال المرأة وعذوبتها كلما زادت شكوكه لأنه لا ينسى مأساة طفولته . لقد هجرته أمه فى سن كان فيها شديد التأثر مما حطم ذلك المثال الذى كان يحمله لأمه . لقد جعله ذلك يشك فى أهلية المرأة للثقة وفى قيمة الزواج ككل .

ورغم غرائزه المعادية للجنس الآخر إلا أنه يدرك أن حياته الحالية موحشة ينقصها شيء ما . حقا إنه يرى الرضا فى عيون

بعض أصدقائه الذين رزقهم الله بزوجات محتشمات ، إلا أنه كان ينفر من فكرة الزواج . كان ينفر منها حتى فى تلك اللحظات التى تتسلل فيها الرغبة كالأفعى إلى داخل عقله . لم يستطع أن يكف نفسه عن التفكير فى تلك الفتاة «فيونا تشاليس» . تلك الجرأة التى تقف بها أمامه ، وذاك الإقدام الذى يجعلها تقوم بعمل هى غير مؤهلة له . إنها لا تحمل شيئاً من تلك الفتاة المدللة التى خالها . «تباً لك يا فيونا» . قالها لنفسه وهو يسير نحو مسكنه الصغير حيث تكون «إيمى» فى انتظاره بالعشاء والحمام الساخن . وبعد ذلك لا يكون له رفيق سوى الليل الموحش و«چيس» الكلب يجلس معه إلى النار وهو يطالع جريدة يومية أو كتاباً أو يسمع الموسيقى ، أو ربما يذهب إلى مقهى القرية يتناول بعض المشروبات مع مزارعين من الأحياء المجاورة . «تباً لك يا فيونا» . قالها ثانية وهو يجلس فى غرفة معيشته بملابسه الرثة القديمة ينتظر «إيمى» بالعشاء . وقفزت إلى مخيلته الصورة البديعة لتلك الفتاة ليلة أمس فى ثوبها الحريرى الذى يبدى طراوة جسمها وعطرها الفواح الذى يأخذ بالألباب . لأول مرة يحس بالبرودة والوحشة هنا فى مزرعة «ستونهيد» مقارنة بالضيعة . رأى الغرفة تمتلئ بالأشباح وهو يسمع ارتطام قطرات المطر بالنوافذ .

بعد قليل دخلت «إيمى» تحمل صينية ومن خلفها فتاة صغيرة تعبق نضارة وشباباً ، ففتح فاه لدهشته قائلاً : من ؟ «سوزان» ؟

«سوزان» هى حفيدة «إيمى» التى كانت تختلف إلى المزرعة كثيراً وهى طفلة واعتاد مارتن أن يراها تمرح بين جنباتها مرتدية فستاناً قصيراً يكشف عن قدميها الصغيرتين وذراعيها الرقيقتين . لكنه الليلة يراها امرأة .

قالت «إيمى» : أرجو ألا يزعجك وجودها . لقد حضرت قبل ميعادها بيومين . وهى الآن فى ربيعها الثامن عشر ، يجرى وراءها كل فتيان «مانشستر» .

وضع «مارتن» غليونه فى جيبه وهو يفكر «كل فتيان مانشستر!» لقد جعله ذلك يحس فجأة بتقدم منه رغم أنه لم يصل إلى الثلاثين . تلك الطفلة التى اعتاد أن يمنحها الحلوى والبنسات صارت الآن امرأة كاملة الأنوثة .

مكثت الفتاة بعد خروج جدتها وأخذت تحادث مارتن عن التغير الذى طرأ على المنطقة ثم قالت : لقد سمعت من جدتى أن هناك سيدة جميلة ترتدى ثيابا فخمة فى بيت الضيعة . رد مارتن بابتسامة خافتة : لكنها الآن لا ترتدى تلك الثياب بل تعمل فى المزرعة .

– تقول جدتى : إنها رائعة الجمال . هل تعتقد ذلك يا سيد «فارلونج» ؟

إنه لا يريد التحدث عن جمال «فيونا» على الإطلاق لذا أخذ يراوغ متسائلاً : وماذا عنك يا«سوزان» ؟ تقول جدتك إن الفتيان يجرون وراءك . أخالك لا تبغين الزواج فى هذه السن الصغيرة ؟

– أولا توافق على ذلك يا سيد «فارلونج» ؟

حلق بنظره بعيداً وهو يحس بشىء من القلق فهى لا تعطى بالاً لجاذبيتها الأنثوية . فجأة صارت المرأة تهديداً واعداً لحياته . أخيراً قال للفتاة : هل تريدين أنت ذلك ؟

– ليس قبل أن أجد الشخص الذى أحبه . قالتها وقد صوبت تجاهه شفتيها وهى تضحك ضحكة لم تظهر منها إلا القليل على فمها .

وفطن «مارتن» إلى أنها تلعب معه دور المغناج وأنه إن أراد فلن يقضى المساء وحده ، لكن شيئاً فى أعماق نفسه غير رغبة الذكر فى الائتناس بالأنثى أثنى عزمه عن تلك الإرادة . هذا الشىء هو صورة تلك الفتاة التى تعيش هناك فى بيت الضيعة .

ثم سمع الفتاة تقول فى رقة : أخبرنى إن أردت إصلاح أى شىء فقد صرت ماهرة فى الحياكة وسأسعد بأى عمل أقوم به من أجلك .

– أشكرك . لكننى الآن أريد أن أقوم بإنهاء بعض الحسابات .

اختفت «سوزان» وعادت إلى «مارتن» وحدته . والتقم عشاءه دون أن يتذوقه ، فقد هجرته شهية الطعام هى الأخرى . لم يجد بعد ذلك إلا أن يرتدى معطفه ويصطحب كلبه ليسير فى قلب الليل العاصف .

فى صبيحة اليوم التالى كان المطر لازال يهطل لكن «كرستين» استيقظت مبكراً هذا اليوم . أخذت المنديل الذى كان «مارتن» قد أعطاها إياه ودلفت إلى «ستونهيد» أولاً . طرقت الباب . لم تسمع رداً

فدخلت لترى بيناً يعبق بشخصية فارلونج وقد خلا من أى لمسة نسائية . تقدمت إلى الداخل ثم إذا بفتاة صغيرة تخرج من المطبخ وتنهرها لما تركت قدماها من آثار على الأرضية النظيفة ، بل إنها أمرتها بتنظيفها كذلك ظناً منها أنها إحدى العاملات بالمزرعة . وكانت الدهشة تلجم كرستين لدرجة أنها لم تعبأ بطريقة محادثتها ، وقبل أن تفيق وتنفجر فى الفتاة خرج فارلونج من غرفة معيشته صارخاً : ما هذا ؟

التفتت إليه كرستين والغيظ يتملكها وقالت : إننى لا أعرف من هذه الصغيرة لكنها كانت فى أشد الوقاحة معى و...

– سيد فارلونج . إننى لم أزد على أن أخبرتها أنها تحمل الطين فى حذائها وتوحل الأرضية التى نظفتها جدتى !

وكأن شيئاً من المتعة اعترى عينى فارلونج المكتئبتين ، لكنه نظر تلقاء سوزان قائلاً : عزيزتى . إنك لا تدرين من تحادثين . إنها الآنسة تشاليس .

اتسعت عينا سوزان وبهت وجهها ثم قالت شيئاً لم يبن كنهه وانطلقت إلى داخل المطبخ . أفرج مارتن عن ضحكة ثم قال : لقد روعتِ فتاتنا الصغيرة . فعضت كرستين على شفتيها . إنها دائماً تحس بتحديه لها . لكن أشد ما ضايقها كانت عبارة «فتاتنا الصغيرة» هذه . لذا سألته : ومن تلك «الصغيرة» ؟

– إنها حفيدة «إيمى» . هل هناك من اعتراض ؟

وتلاقت العيون فأحست «كرستين» برعشة تتملكها فقد كانت هناك مئات الأسئلة فى عينيها ، أما عيناه فكانتا تعجان بالمناهضة . فقالت: ليس لدى أدنى اعتراض سوى أنه يجب عليكم تعليمها بعض آداب السلوك . ومضت إلى المزرعة و«فارلونج» ينظر خلفها .

فى التاسعة إلا الربع كانت «كرستين» تقف إلى جوار الشاحنة التى تطوع «چورچ» بتحميلها ثم تفريغها بعد ذلك لأنها كما رأى كانت حمولة جد ثقيلة على فتاة رقيقة مثلها . وقد أنهت مهمتها وعادت وحدها بالشاحنة بعد أن ذهب «چورچ» لقضاء عمل آخر . وقبل أن تصل إلى ساحة مزرعة «ستونهيد» رأت شبح «فارلونج» يتأبط بندقية وفى أعقابه الكلب «جيس» . إنها لم تره منذ تلك المواجهة التى أساء إليها فيها طرفين ، لذا كانت تنوى التظاهر بعدم ملاحظته ، لكنه لوّح إليها منادياً : انتظرى قليلاً !

جنحت بالشاحنة إلى الجهة اليمنى ثم نظرت إليه شزراً وهى تقول: نعم يا سيدى ؟

فقال فى غضب : لا تنادينى هكذا .

فلم تجب . فطفق ينظر إليها وبداخله شىء من المتعة . إنها المرة الأولى التى يجاهره أحد فيها العداء ، كما أنه يحس شيئاً من تأنيب الضمير منذ أن غاب عنه شبحها فى أول الصباح . مهما يكن من أمر

فهى لم تحظ بالاحتفاء الكافى وهى تحت سقف مسكنه . ثم انتعشت بداخله رغبة جديدة فى أن يغيظها فسأل : ما نوع العمل الذى ترغبين فى إنجازه لبقية اليوم ؟ هل تأخذين «سوزان» بسيارتى للتنزه ؟

احمر وجهها وهى تقول : إن تقصد بها مزحة فهى ليست بالمزحة اللطيفة . فضحك وأخرج الغليون وحافظة التبغ من جيبه وأخذ يعبؤه ثم قال : لست فى حاجة لهذا العبوس . لم تقصد «سوزان» أن تكون وقحة معك ، كما أننى لم أقصد عدم الاحتفاء بك . لو انتظرت لحظة لطلبت منك الدخول لتناول القهوة .

فقالت بلهجة صبيانية : وأنا لم أكن لأقبل .

– إذن الأمر على ما يرام .

وتحولت أرض المعركة إلى داخلها . إنها تشعر بالغيظ لكنها لا تستطيع مقاومة سحر وجه هذا الرجل عندما يتخيّر الابتسام ، وقدرته العجيبة فى الإجهاز على توازنها سواء كان عذب الأخلاق أم غليظها .

– هل أوصلت أوعية اللبن إلى مكانها المرام ؟

– نعم . وقد ساعدنى «چورچ» فى ذلك . ولا أظن هذا دليلاً على ضعف الأنثى .

وضع «مارتن» الغليون فى فمه وأخذ يشعله قائلاً : أسُخرية فى أول النهار هكذا !!

– إن لم تكن لديك أوامر أخرى فسوف أذهب الآن .

لم يجب بل رفع رأسه يشاهد سربا من طيور الزرزور يحلّق فوق رأسيهما فجأة ثم يحط فى هدوء ورقة كسحابة معتمة . قال «مارتن» وهو ينفث دخان غليونه : علامة الطقس الجاف .

أثار ذلك اهتمامها رغماً عنها فسألته : ماذا ؟

– هكذا يقولون فى هذه المنطقة .

نظرت إلى تلك المظلة الزرقاء اللامع لونها رغم برودة الجو . إنه لصباح بديع تلمسه يد الخريف بشىء من صقيع قليل . بعد هطول المطر ترى المروج قد اغتسلت وكأنها عروس تتزين لعرسها . بالسعادتها أنها تعيش الآن بعيداً عن الحرب وويلاتها ! لكم تحب الريف بهضابه ووديانه – أخال هذا أجمل مكان فى العالم !

شعر بصدق ما تقول فأحس بفرحة لا يعرف لها سبباً فأشار : إنه حقاً جميل . وسوف تتعلمين من الزراعة أن ما تبذليه من جهد لا يضيع هباءً . هذا ما تعلمته أنا . فالمرء يحصد ما يزرع ، وحتى إن كان المحصول شيئاً يسيراً فإن المرء يفوز بشىء ما ، فالطبيعة تجزل العطاء للجهد المبذول .

تحول نظرها إليه . إن هذا لرجل عجاب ! يصعب على المرء أن ينتظر هذه الكلمات وهذه الأفكار من فلاح مزارع ، لكنها تذكرت ما قاله السيد «ستاندنج» .

ثم أطرقت تفكر فيما قال آنفا . ترى ماذا تحصد هى مما تقوم به من أجل «فيونا» ؟ إنها ترى فى نفسها الآن أكذوبة حية تقف إلى جواره .

أحسَّ الرجل شرودها فسأل : ماذا يشغل بالك ؟

احمرَّ وجهها وأحست بعينيه تخترقان دماغها لتكشف النقاب عمَّا بداخلها فهزت كتفيها وقالت : لا شىء على الإطلاق .. من الأفضل أن أرحل الآن .

– لقد خصّصت هذا الصباح لصيد أبو زريق والعقعق وقد أصْطاد بعض الأرانب البرية .

عندما نظر إلى وجهها وما يحمله ضحك قائلاً : آه ، لقد تذكرت الآن أنك لا تحبين قتل الأرانب .

– إننى لا أحب قتل أى شىء .

– أنتم أيها النساء مخلوقات خادعة . يخفق قلبكن لقتل أرنب برى فى حين أن هناك الكثيرات منكن لا يعبأن بقتل كل ما هو جميل فى الإنسان .

اندهشت كرستين لهذه المرارة المفاجئة ثم سرعان ما أحست بالتعاطف معه عندما تذكرت قصة أمه : لا تقل ذلك فليست كل النساء على وتيرة واحدة .

لم يعد وجهها الساحر يحمل شيئاً من العداء ، فأخذ ينظر إلى عينيها الرقيقتين فتذكر تلك النظرة الرقيقة الهادئة التى لا يستطيع مقاومتها من «جيس» . وتملكه إحساس جدّ عجيب . إنه يخاف من نفسه . يخاف من هذه الفتاة . ثم قال لنفسه : إنه ضيع معها الكثير من الوقت فاندفع فى شدة : من الأفضل أن تذهبى ! يمكنك أن تسألى «والتز» عن كيفية تشغيل الحصادة إلا إذا كنت تعبت من هذه المهمة .

امتعض وجهها ثانية . ما أندر وأقصر لحظات الود مع هذا الرجل. إنّها تحلق فجأة وتحط فجأة مثل هذا السرب من الطيور .

أجابته بجفاف مماثل :

– لست متعبة . شكراً لك .

أدارت المحرك واندفعت فى عنف ينم عن مهارة وحنكة فى القيادة .

وسار «مارتن» قليلاً وهو ينفث الدخان ويفكر . لماذا تظهر هذه الفتاة لتنغص عليه حياته . ثم نهر الكلب الذى كان يقترب من أجمة صغيرة وكأنه ينفّس عن نفسه . عد أيها الشيطان الصغير .

عاد الكلب ونظر إليه هازاً ذيله وكأن عينيه الذهبيتين تطلبان المعذرة؛ لأنه كان يتوق إلى اصطياد أرنب شارد . انحنى وأخذ يربت ذلك الشعر الحريرى وهو يعاود التفكير فى عينى تلك الفتاة .

وما لبث أن ثار على نفسه فقال : لعنة الله على ذلك ! ثم تهللت روحه لما رأى فى تلك اللحظة عقعقاً يطير أمام ناظريه فصوب ناحيته وأرداه قتيلاً .

سمعت «كرستين» دوى الطلقة وهى تقفز من الشاحنة خارج أبنية المزرعة : فقالت لابد أن «فارلونج» قد اصطاد شيئاً ما ولابد أنه فرح بذلك .

قالت ذلك وهى تحس بضيق اشتدت وطأته طول الصباح ؛ لأنها لم تستطع أن تفرق بينه وبين مخيلتها .

* * *

الفصل الخامس

حل المساء لتعود معه تلك المزارعة إلى مظهر فتاة المجتمع «فيونا تشاليس» ، وكان أول شىء فعله السيد «ستاندنج» عند رؤيتها أن عنفها تعنيفاً شديداً أن لم تكتب رداً على رسالة أبيها . وماذا عساها أن تفعل و «فيونا» الحقيقية تعيش تلك السعادة الغامرة وتلك الأثرة التى تنسيها أن ترسل لها خطاباً تبعث به « كرستين » من الضيعة إلى الأب المسافر . إنها لا تحفل بالعثرات التى يلاقيها الآخرون من أجلها . وما كان من لـ «كرستين» إلا أن تأوى إلى الانشغال وكثرة العمل . ثم سألها الرجل بصوت مرح جهير : إذن أنت تستمتعين بالعمل فى المزرعة ؟

– أستمتع به كثيراً .

– وهل تسير الأمور عل ما يرام مع «فارلونج» ؟

– إنه يضايقنى أحياناً . لكننى أفعل ما يطلب منى .

– هو إنسان طيب أرثى له أحياناً . فهو منعزل تماماً .

فجأة قفزت إلى مخيلتها تلك الفتاة الصغيرة فقالت بشىء من الغيظ :

– أعتقد أنه يجد ما يسليه . فهناك فتاة صغيرة جميلة هى حفيدة «إيمى» تعيش بالمزرعة .

فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال : لا أظنه يطيل الوقوف عند مثلهـــا .

وقبل أن توافق كرستين على ذلك أو ترفضه أضاف ستاندنج : فيونا ! لقد تذكرت شيئاً وهو أننى سأقيم حفلاً صغيراً فى الأسبوع المقبل بمناسبة عيد ميلادى . لم أكن أهتم بعيد الميلاد ؛ لأنى أراه من الحمق أن أضع خمساً وستين شمعة فى كعكة عيد ميلادى لكننى أراه من المناسب ، والحال هكذا ، أن أدعو بعض الأصدقاء فأقدم لهم بعض الطعام والشراب لننسى الحرب ولو لليلة واحدة .

ثم أخذ الرجل يملى عليها قائمة المدعوين التى ذيلها باسم مارتن فارلونج . فأطرقت كرستين تتخيله فى ثياب الحفل وسط اللاهين . لابد أنه سيبدو غريباً . لكنه لابد سيكون أكثرهم أخذاً بالألباب .

– هنـاك شيء آخر تذكرته . تذكرين مدام «رنويك» التى كنا فى ضيافتها الأسبوع الماضى ؟ لقد اتصلت بى لتوها تخبرنى حضور ابنها «جلفرد» الضابط فى سلاح الطيران والذى تملكه الحبور لما علم بوجودك هنا . يقول إنه التقى بك عدة مرات فى لندن وسوف يسعد كثيراً بصحبتك ومن ثم دعانا إلى العشاء غداً فى بيتهم وقد قبلت .

تلعثمت «كرستين» ولم تدر ما عساها أن تقول . هذا الرجل الأشيب يعتبر وجود الفتى مسعداً لها ومن ثم يرى أنه من المسلم به قبول الدعوة . هذا موقف لم تعمل له حساباً لا هى ولا «فيونا» الحقيقية . ماذا ستفعل الآن فى هذا الفتى الذى سيكشف السوء قبل أوانه ، وقد لا تجد الفرصة الكافية لتبيّن أمرها للسيد «ستاندنج» ؟ أتتظاهر بمداهمة المرض لها وشدة وطأته عليها حتى لا تخرج مع الرجل غداً؟ لكن هذا سيفسد على الرجل حفل عيد ميلاده ، ثم من يدرى ، فقد يسرع الفتى فى الحضور لرؤية صديقته وهذا منطقى . هى لا مفر ستلتقى به ، لكن لابد من تأجيل ذلك بعض الوقت . لذا عزمت كرستين على التظاهر بمداهمة المرض لها ظهيرة الغد ولتتخذ من ذلك ذريعة لعدم الخروج بالليل . كما أبرقت إلى «فيونا» تطلب الاتصال بها حال علمها .

لم يكن السيد ستاندنج بالرجل الذى يلحظ ما ألم بالفتاة من وجوم .

فى اليوم التالى نفذت كرستين خطتها ، فأخبرت مارتن عند الظهيرة أنها قد ألمّ بها ألم شديد ، ومن ثم تطلب الإعفاء من بقية عمل اليوم .

وكان مارتن رهيف الحس أمام كل من ألمّ ، به ألم ، فطفق ينظر إليها وقد راعه أن مظهرها يصدّق على مخبرها . لقد انطفأ السراج

المنير بوجهها الذى صار نهاراً غابت عنه شمسه فلم يبق له من النهار إلا اسمه .

قال : فلتعودى إلى البيت فتلزمى الفراش .

ذهب عنه جسدها وتملكه شبحها . لكم يفتقد رؤيتها حوله بجسمها الغض البض اللدن . حتى تلك المعارك الكلامية التى كانت تدور رحاها بينهما كان يفتقدها .

فى المساء وقف «فارلونج» على باب الضيعة يسأل الخادم عن رب البيت ، فأخبرته بأنه يتناول العشاء عند «آل رنويك» ثم أضافت أن الآنسة «تشاليس» بالداخل إن أراد محادثتها ، فتعجب . حقاً كانت رؤيتها هى المحفز الرئيسى لحضوره إلى جانب محادثة السيد «ستاندنج» فى بعض شئون العمل لكنه تخيل أنها ستكون طريحة الفراش فسأل الخادم : أوليست فى غرفة نومها ؟

فأجابته الخادم : كلا . لقد نامت حتى الأصيل ، لكنها الآن على ما يبدو تنتظر مكالمة هاتفية . تردد «فارلونج» قليلاً ثم قرر أن يراها ولو لبضع لحظات . وتعجب من نفسه على هذا الشوق لرؤيتها . إنه يريد أن يتأكد من مثولها بالمزرعة غداً ليس من أجل العمل .. لا .. لقد اعتادها وصارت جزءاً من حياته .

وياالهول المفاجأة على «كرستين» عندما انفرج الباب ليظهر منه «مارتن فارلونج» فزاغ البصر وبلى النظر . ما كان أحوجها الليلة أن

تكون وحدها كى تُنزل عن كاهلها تلك الأثقال على مسامع «فيونا» علّها تستجيب ، خاصة وأن «جلفرد» أرسل يصف أسفه لعدم حضور «فيونا» ويعد بأن يتوجه شطر بابها أول الصباح .

وتلاقت حيرتهما فى إيجاد الكلمات . هى لموقفها الذى لا يدركه أحد ، وهو لهذه التجربة وهذا الإحساس الذى يعيشه لأول مرة فى حياته ، فتلعثم كلاهما . إنه يستطيع التصرُّف والحديث بسهولة ويسْر وهى فى المزرعة تعمل تحت إشرافه رغم ما قد يعتلج فى دخيلة نفسه لكن .. هنا .. مع كريمة السيد «تشاليس» وضيفة ربيب نعمته ووسط هذا الترف لم يكن إلا ليُدبر رابعاً إلى حصنه فى سرعة جلمود حطه السيل من علِ . لكن الجلمود تجمد مزءوماً مدحوراً بهذا السحر الماثل أمام ناظريه .

اجتهدت أن تلم شتات نفسها فسألت : مالك تسمّرت فى مكانك وقد شخص بصرك ؟!

فاحمر وجهه وخرّ آسفاً . ثم مضت هى ترعى شئون الضيافة فعرضت عليه سيجارة وشيئاً يشربه ، فقبل الأخرى وترفع عن الأولى قائلاً : أفضل الغليون بعد إذنك .

فقالت بصوت لا يخلو من الارتباك : أنت فى بيتك !

ثاب «مارتن» إلى رشده وأحسّ ارتباكاً لم يعهده عليها من قبل . فسأل : هل قطعت عليك خلوتك ؟ أأعود أدراجى ؟

كان هذا عين ما تريد فقد كانت كوتر قوس شُدَّ ليطلق سهمه . إنها ترتاع من رؤية ذلك الـ«جلفرد» ولا تنتظر إلا شراً ، وقد حان الوقت لتنهى «فيونا» الأمر وتعود «كرستين» أدراجها . وأخذ «مارتن» يعبئ غليونه وهى تنظر إليه . هناك شىء .. شىء لا تدرك كنهه يجذبها إلى هذا الرجل . لكم تسحرها تلك الأصابع التى تمسك الغليون وتشعل عود الثقاب ، هذه الأصابع السمراء القوية . وهناك فى أعماق وجدانها يكمن اشتياق دفين لأن تتخذ منه الصديق الناصح الأمين ، فهو رغم كرهه للنساء عاقل فطن ثاقب الفكر صائبه . ما من شك فى هذا . لكم تمنت أن تفضى عند بابه جعبة أسرارها ! لكن هذا آخر ما تستطيع فهو لابد شاكّ فى البداية محتقرٌ فى النهاية . فأنّى لها أن تكون محط ازدراءه ؟

أحست بالأمواج تلاطمها وهى تحت وطأة غيث لا ينتهى من العثرات لكن الإحساس الوحيد المهيمن عليها هو ذلك الخوف .. الخوف من أن تتصل بها «فيونا» الحقيقية فى وجود مارتن . حينئذ لن تستطيع أن تبوح بسريرة مشاعرها إلى فيونا كى تفصل فى هذه المهزلة .

ثم كرر «مارتن» على مسمعيها : أأعود أدراجى ؟

لم تملك إلا أن تقول : كلا بالطبع . هلا خلعت معطفك وجلست لأقدم لك الشراب ؟ فخلع المعطف وتبعها إلى أريكة وثيرة تشرف على حرّ المدفأة . وبعد أن جلسا أخذ «مارتن» يجاهد زمام قلبه الذى انفلت لقربه من لفح هذا الجمال الرابض ، وتعرضه لتلك الأشعة الفوق صوتية الموجهة من عينيها وذاك الوهج المحموم الخارج من بدنها . وبعد عناء لفظ عبارة أخرى : أمتيقنة أنك لست فى حاجة لأن تأوى إلى فراشك ؟

– أنا بخير .. العم «بوب» يتناول العشاء فى «لنجفورد» عند أحد معارفيه القدامى .

عضّت على أناملها وهى تدور بالحديث حول هذا الفتى الذى يهددها وجوده ولا تستطيع أن تزحزح تفكيرها عنه . ثم سألت «مارتن» : هل تعرف «جلفرد» ؟

– إننى أعرف كل من بالمنطقة وقد كنت ألعب أنا وهو الكريكيت ونحن صغار فى أجواء القرية .

فسألت : ما هيئته ؟ أقصد ما رأيك فيه ؟

– شاب حسن .

– ذاك مدح عقيم .

– هنا فى الريف لا مديح بلا مبرر .

– لكننى أستطيع القول بأنك أكثر الناس انتقاداً للآخرين .

استقر نظره عندها وهو يريد أن يقدم هذه المرة نقداً مخالفاً . يريد أن يخبرها أنها تأخذ بلبه ، وأنه يقاوم رغبة متأججة فى أن يؤويها إلى ظل عطفيه ويؤوى وجهه بين جنبات ذلك النحر البض الغض ، ويملأ أنفه بعطرها كما يتنفس الإنسان الهواء ليحيا . كان على شفا جرف هار يكاد ينهار به فى أضغاث أحلام ما كان ليفيق منها . تمالك نفسه قليلاً ولفظ كلاماً : زيدينى عن نفسك وعن حياتك فى «لندن» كيف كانت .

طفقت هى الأخرى تدرأ عن نفسها شبح «جلفرد» لتنعم بما تستطيع من حديثها مع «مارتن» الودود الذى لا تجده إلا قليلاً . ولكم تمنت أن تنعم بهذه اللحظات لكن عيونها لم تكن لتغض الطرف عن الهاتف . ثم عادت تتجرع المرارة لرغبتها فى أن تكاشفه بالأمر ولعدم استطاعتها ذلك .

أحس مارتن اضطرابها فسأل : أهناك من شىء يقلقك ؟

– وماذا عسى أن يكون ؟

– أحسّ شيئاً يشغل بالك .

فتكلفت الضحك وهى تقول : هراء !

تمنّت أن يرحل . ثم تمنت أن تمسك بيديه وتسكب اعترافها فى أذنيه . لكنها حولت الحديث إليه فسألته مشاكسةً : ألا تحس الضجر من الحياة هنا ؟ عقد حاجبيه وهو يقول : إنى أعشق المزارع ولا أخالنى أسأم الريف يوماً . لكن مادمت تسألينى فإننى أقر لك بأننى أكره البقاء هنا ساكن الطرف والحرب دائرة رحاها . ألا تظنيننى أحسد فتى مثل «جلفرد» على ثياب العسكرية ؟ ألا تظنيننى أتمنى الانضمام إلى صف الجنود ؟ لكم أتمنى ذلك الآن .. لولا السيد «ستاندنج» .

أحست «كرستين» بالندم لما أثارت فى نفسه من شجون ، وشعر هو بالدهشة لأن هذه الفتاة اخترقت سرائر نفسه وأخرجتها من مرابضها .

قالت : لا تدع الأمر يضايقك فعملك هنا لا يقل شأناً عما يقوم به الجندى على أرض المعركة .

فنظر إليها شاكراً وهو يحس دفئاً فى مآقيه ، فارتعشت أهدابها لتلك النظرة التى روعتها ، ثم كانت على وشك أن تدق الجرس للخادم لتحضر شيئاً للضيف يشر به إلا أن جرس الهاتف كان أسبق .

لم تستطع كرستين أن تحصل على بغيتها من هذه المكالمة التليفونية . وكانت كلمات «فيونا» لها : « تجلدى . ولا يجب أن تقابلى «جلفرد» حتى أعود . أرجوك أن تصبرى » ، ولم تزدها هذه الكلمات إلا ضيقاً وضجراً من أنانية صديقتها وعدم تقديرها للموقف فعادت شاحبة اللون زائغة البصر فنهض «مارتن» يتلقاها قائلاً : تبدين متعبة . هلا جلست . من المؤكد أن هناك شيء يقلقك .

– هدئ من روعك ودعنى .

قالتها وقد تملكتها حالة من الهرع فارتمت على الأريكة وألقت برأسها بين يديها تحاول استجماع قواها .

فغر «مارتن» فاه دهشة لما رأى أعطافها تهتز . «فيونا» تبكى ! إن شيئاً فى الدنيا لا يؤثر فيه مثل رؤية امرأة تبكى . ومن تكون هذه المرأة ؟ إنها فتاة سمتها الدائم هو الهدوء مع الحيوية ! لم يتمالك نفسه وهو يجلس إلى جوارها ويضع يده حولها مسائلاً : عزيزتى ، ما الخطب ؟ هل أستطيع المساعدة ؟

فقالت بصوت مكتوم : كنت أتمنى ذلك يا مارتن .

– أخبرينى . ما الأمر ؟

– لا .. لا .. أرجوك .. اذهب عنى .

– سأفعل إن كنت لا تريدننى هنا .

فرفعت إليه وجهاً غارقاً فى لجة من الدموع وقالت : ليس ذاك قصدى . فقط أنا لا أستطيع أن أخبرك بشيء .. لن تفهمنى الآن .

إلتاع فؤاده وأحس بشيء لم يحسه من قبل : إننى لا أود إقحام نفسى فى شؤونك لكننى أخال شيئاً يخص « جلفرد » هو الذى يقلقك . ألا تريدين مقابلته ؟

ارتاعت لأن ذكاءه جعله يدرك ذلك من خلال الكلمات البسيطة التى استطاعت أن تقولها لفيونا فقالت : ربما .. لا .. آه ! ماذا يعنيك فى الأمر ؟

خرجت أنفاسه تترى فقال فى حدة : هناك شيء بينكما ؟

قالت : لا تكن سخيفاً .

قال : كيف أساعدك دون أن تجيبينى ؟

أحسّت باضطراب فقالت : وماذا يعنيك فى الأمر ؟

فقال بجفاف : يعنينى إن كانت هناك علاقة بينكما فى «لندن» لا ترغبينها أنت الآن وهو يحاول فرض نفسه عليك ؟

ارتفعت يدها إلى شفتيها . هذا هو ما خطر بباله إذن ! فخرجت من بين شفتيها ضحكة هستيرية ملأت قلبه غضباً وغيرة .. وذهب بعقله أن هذا الجمال وهذا الضعف قد عرف الحب من قبل . فخرجت الكلمات من بين أسنانه : لا تضحكى . ألا ترين أنك تذهبين بعقلى ؟

وقبل أن يكبح جماح نفسه التقمها بين ذراعيه وطفق يمسح بشفتيه العبرات التى بللت أهدابها ووجنتيها ثم قبلها . ولم تبد هى مقاومة تذكر بل ذابت فى نعيم هذه اللحظة ونسيت الماضى والحاضر والمستقبل . إنها قبلة توسل ورجاء لحبها فاستجابت لها ، وما كانت تلك المشاكسات بينهما إلا تعبيراً عن هذا الحب العميق الدفين . ثم سمع صوتاً لا يكاد يبينه وهى تنتحى برأسها جانباً قائلة : لا .. مارتن .. دعنى أفكر .. دعنى أتنفس .

وفهم هو ذلك على أنه توسل منها بالابتعاد عنها فأطلقها وكأن عاصفة اجتاحته . لم يجد تفسيراً لمشاعره فى هذه اللحظة . كل ما شعر أنه سبب لها ضيقاً عظيماً فقال : أرجو أن تغفرى لى .

وخطف معطفه وسار إلى خارج الغرفة كمن كان تحت وطأة كابوس إما أن يوقظ نفسه منه أو يدعه يجهز عليه . نظرت «كرستين» إلى الباب ورفعت يديها إلى وجنتيها المحترقتين وقد تجمّد تفكيرها . إنها تريده أن يعود ، نادت : مارتن . مارتن . لكنه قد مضى دون أن يسمع نداءها . مضى إلى قلب الدُجى مشتت الأفكار والأوصال ، لايدر إلا أنه من الفتاة فى غرام ، ذاك أول حب له ، وياله من غرام ، له منه السرور والألم . أما السرور فتلك أول مرة يذوق يذوق طعم الحب والجمال ، والألم لما علت الفتاة عنه تكرماً فبعدت عنه بُعد الشمس عن الأزهار ، وماكان منه الليلة لابدّ باعثٌ

فى نفسها البغض له . سار والنسيم البارد حوله والحرارة تدب فى أوصاله ، أضل الطريق هو ؟ أم أنه يبغى الكرور إلى تلك المآقى ؟

وأفاق مارتن على نور سيارة تخترق الظلام وتتجه ناحية الضيعة وقد تعرف على قائدها . إنه « جلفرد رنويك » ، لابد أن لوعة الاشتياق لم تطق صبراً حتى الصباح ، فجاء يجرى إلى ذاك الجمال الصاحى . وتملكته غيرة لاغيرة بعدها ، أيزورها ذاك الفتى والقمر دانى ؟ أتراها ترغب فى الزيارة أم مارأى من ضيقها الليلة جد هزار ؟ وماذاك الذى بينهما ؟ إنه لابد خطر من الأخطار . وما استطاع إلا أن يسير لبيته ممزقاً لما خال الفتى وحده مع هذه المهزار .

أحس جلفرد بخيبة الأمل لعدم حضور «فيونا» التى قضى معها أمسيات جميلة فى «لندن» إلى بيته الليلة فعزم على ترك الحفل والمثول بين يديها . المفترض أنها ستكون فى غرفة نومها لكنّه كان متأكداً من أنها ستهبط مسرعة فور علمها بحضوره . طرق الباب وأشعل سيجارة وهو يدندن على ألحان عزف اعتاد الرقص عليه مع «فيونا» فى «دورشستر» . فتحت الخادم الباب وأخبرته آسفة أن الآنسة «تشاليس» صعدت إلى غرفة نومها فقال للخادم : أخبريها أن صديقاً عزيزاً يريد رؤيتها لبرهة . وأنا متيقن أنها ستنزل إلىّ .

صعدت الخادم وهى تظن أن «كرستين» فى غرفة نومها لكنها كانت لاتزال فى المكتبة تشعل السجائر وتحاول أن تلم شتات نفسها بعد خروج «مارتن» . وكانت تواجه الحقيقة التى تبدت لها وهى أنها تحب «مارتن» .. تحبه ذاك الحب الذى كانت تؤمن أنه لن يكون إلا لرجل واحد فى حياتها . وقد اشتدت وطأة الحب عليها اليوم أكثر مما مضى . إنها لم تسمع طرق الباب ولم تعلم مايخفيه لها القدر فأطفأت المصباح وخرجت تقصد حجرتها فإذا بها ترى الباب قد انفرج عن شاب أنيق فى زى عسكرى ، تسمّرت فى مكانها وانخلع قلبها لما تعرفت عليه . إنه «جلفرد رنويك» الذى رأت صورته فى زيارتها السابقة لأمّه !

* * *

الفصل السادس

لم يكن هناك مناص من المواجهة وقد مثل الخطر ببابها فلم تجد إلا سبيل المكاشفة فاتخذته سبيلاً . اصطحبت «جلفرد» إلى المكتبة وقصت عليه قصتها وهو دهش عابث لايحول النظر عن هذه الفتاة الجميلة التى زادت من سحرها جحافل الدم المتدفق إلى وجنتيها تكرّ وتفرّ وكأنها تراوغ عدواً . وتبينت هى من ردوده أنه لايلوى على شىء سوى اللهو والمرح فحمدت الله أن لم يكن فى جد «مارتن» لكنه كذلك كان يحاول التودد إليها . إن كان قد خسر «فيونا» فلم لايفوز بـ«كرستين شو» ؟ لكن كل محاولاته باءت بالفشل إذ كان «مارتن» شاخصاً أمام ناظريها لايتحول عنها فكانت تحبط كل محاولات «جلفرد» . فى النهاية قال لها : إننى أقبل الانضمام إلى زمرة التمثيل فى مقابل أن تسلّى وحدة إجازتى هذه .

لم تكن تريد أن تقضى لحظة من العبث مع هذا الـ«جلفرد» إنها تريد أن تكون مع «مارتن» ... تريد أن يتفهم «مارتن» موقفها ، لكنها أحست أن الفجوة التى بينها وبينه قد فغرت فاها عن آخره . وكان «جلفرد» مستعد لقضاء المزيد من الوقت يحادثها ويمازحها أملاً فى أن يكسر حاجز التحفظ والخجل من ناحيتها لكنّها كانت جد متعبة لتتجاوب مع محاولاته فما لبث أن انصرف بعد فشله فى أن يحظى

بيوم يقضيه معها فى الصيد ، وأرضى نفسه بوعد بقضاء الأمسية القادمة معه يتناولان الطعام ويذهبان إلى دار العرض السينمائى .

– عندى السيارة والوقود ولاينقصنى سوى الرفيقة !

وماكان لها إلا أن ترضى .

أطلق الصبح أنفاسه العاصفة يبعث بها السرور فى قلب من يشاء ويبعث بها الخوف والرهبة فى قلب من يشاء . وكان «فارلونج» يتناول إفطاره وقد أطلقت روحه هى الأخرى عواصفها تجوب أنحاء نفسه بعد الليلة الحلوة .. المرة التى قضاها بالأمس . كم كان جميلاً ذلك الجسم البشرى ليناً طيعاً بين يديه . وكم كان مريعاً ما ارتكب من إثم . إنها هى الآنسة «تشاليس» ابنة الحسب والنسب وضيفة ربيب نعمته وما هو إلا أحد العاملين عند هذا المضيف ، مهما كانت المهمة التى يؤديها . من اليقين أن «فيونا» لن تأتى إلى المزرعة ثانية بعدما حدث بل ستمكث فى الضيعة تلهو أو تبادل الحب فتى من جنسها ، وليكن « جلفرد رنويك » . آه لهذا الجو العاصف وتلك الأفكار العاصفة . لقد كان دوماً يرى هذا المكان أجمل بقعة فى الدنيا وهو اليوم يراه أوحش بقعة على وجه الأرض . وما من تفسير لما هو فيه سوى أنه قد أحب ، «مارتن فارلونج» الذى لم يتخيل أن تدخل المرأة فى حياته يوماً وقع اليوم فى الحب وانقلب نظام حياته .

دخلت «سوزان» وهو يحكم على نفسه معطف الممطر تناوله كظيمة (ترمس) الشاى قائلة : جدتى تقول إنك ستحتاج إلى بعض من الشاى الساخن .

– شكراً لك يا «سوزان» .

جلست الفتاة غير بعيدة عنه رافعة إليه مآقيها الساطعة وسألت :

– سيد «فارلونج» ، هل ستكون مشغولاً هذا المساء ؟

– أعتقد ذلك .

– هناك عرض جيد الليلة وكنت أود أن تصطحبنى .

نظر فى عينيها وقد فزع لما أدرك من أمر الفتاة وقال : عزيزتى «سوزان» اعذرينى فأنا لن يكون لدى الوقت ولن أستطيع تضييع الوقود فى شىء كهذا .

عبس وجه الفتاة ولم تتمالك نفسها : إخال أن مثيلات الآنسة «تشاليس» وحدهن يمكن إصطحابهن إلى دور العرض !

– ماهذا الهراء ؟!

– أعتذر .. لكن .. أنا لاأستطيع إلا أن أغار منها . إننى مغرمة بك .

يا للنساء . لقد انبعثت فى جسمه البرودة لهذا الاعتراف الصريح من هذه الأعين الصغيرة وقد لعبت المرأة مؤخراً دوراً خطيراً فى

حياته ، وكأنها تتهدده ، واغتاظ كذلك لأن هذه الطفلة الحمقاء استطاعت أن تنفذ إلى أعماق قلبه ، فهى محقة فى غيرتها ، لاريب . فقال للفتاة شيئاً ما وخرج تتلقفه عواصف أخرى والفتاة خلفه تجهش نفسها بالبكاء .

وصل إلى الحظيرة متأخراً عما اعتاد فكانت عملية الحلب قد انتهت لكنه لما فتح الباب رأى من لم يكن يتوقع ، رأى «فيونا» تنظر فى جانب من الحظيرة وكأنها تبحث عن شىء ما . لما سمعت صوت الباب ينغلق التفتت وراءها ورأته فحيته فرد عليها التحية وقد خفق قلبه ، ثم سمعها تقول : بالأمس سقطت منى علبة فضية للسجائر . تمتم قائلاً : أنا ... هل .. أستطيع المساعدة ؟

التفتت إليه وقالت: أنا متيقنة أنك جد مشغول. ما أوامر اليوم لى .

حاول أن يرد لكن لسانه قد علق بحلقه . لقد تجمد لما شعر منها بشىء من لامبالاة ، وكأن شيئاً لم يكن فظن أنها تزدرى ما وقع منه لذا قررت أن تتجاهله تماماً . لكن مالم يعرف هو أن قلبها هى الأخرى كان يخفق وهى تنظر إليه . تنظر إلى هذا الوجه الرقيق والأعين الزرقاء . يالروعته . إن فتى مثل «جلفرد» ليتضاءل بجواره !

وبقيا هكذا لحظة أو زمناً ليس هناك من حديث إلا حديث العيون . وكان الجو داخل الحظيرة هادئاً دافئاً رغم سقوط المطر بالخارج ومع هذا كانت العواصف مشتدة فى دخيلة نفسه . لأول مرة يرى

عواصف الطبيعة رؤية أخرى . إنها تشبه تلك العواصف التى تجتاح النفس البشرية .

وفضح مظهره مخبره ورأت «كرستين» منه ذلك . كانت تنوى أن تتصرف على نحو طبيعى وتتناسى ماحدث بالأمس لكن كلاهما كان يتذكر .

فجأة قفز فأر من خلف كومة من الحطب فذعرت «كرستين» ووجدت نفسها تتعلق بذراعى «مارتن» الذى نسى كل شىء سوى أن هذا الجسم الرقيق الذى أحب بين يديه فعاد الحديث إلى موضعه الطبيعى لكنه اتخذ أدوات أخرى غير الكلمات . ولبثا هكذا زمناً ، خرجت بعده الكلمات من فم «مارتن» : أحبك ... أحبك يا«فيونا» .

هزتها هذه الكلمات وردت بنفس العاطفة : وأنا أيضاً أحبك .. أحبك .. ولم يصدق أذنيه ! فقال : ليس من الممكن أن تحبينى ؟

– ولم لا ؟

ظل صامتاً برهة ثم ابتعد عنها قليلاً وهو ممسك بيدها وطفق ينظر إليها ، إلى هذا الجمال الذى أشرق فيه نور الحب ، إلى هذه العيون التى تفوح بالمشاعر الندية . إنه ليس بالخبير بأحوال النساء .. لكن مايرى لايعنى إلا شيئاً واحداً وهو أنها تعنى ماتقول .

وتكلمت هى ثانية : «مارتن» إنك لاتدرى ماصنعت بى .

قال وقد جف حلقه : لكننى أعرف ماصنعت أنت بى . إنك تسحريننى .. طوال الليل وأنا أفكر فيك .. أشتاق إليك .. كدت أجن . لكنك أنت كريمة السيد «تشاليس» ، وما أنا إلا ...

وقبل أن يكمل ارتمت كرستين بين ذراعيه ثانية فنسى كل شىء . وأخذا يتبادلان النظرات والكلمات فسمعت مالم يكن هو نفسه يتخيل أن يقول يوماً من كلمات الحب والهيام إلى أن قال : إننى لا أكاد أصدق !

فردت عليه : لكننى أصدق . إننى لم أحب رجلاً فى حياتى سواك .

– كررى ذلك على مسامعى .

فأطلقت ضحكة فى الهواء وقالت : إنى أقول ذلك وهو حق يقين .

– أو تعلمين أننى كدت أجن غيرة لرؤية سيارة «جلفرد» تتجه إلى الضيعة ؟

– مارتن ياحبيبى لست فى حاجة لأن تغار منه أو من أى أحد آخر .

ثم قال فى عنف : أتعلمين أنى لن أتحمل إن أنا ثبت إلى رشدى فتبينت أن هذا كله لم يكن إلا حلماً ؟ لقد أقسمت أنك تحبيننى فلتقسمى بكل غال عندك .

رفعت إليه عينين لامعتين وقالت بلا تردد : أقسم لك .

التهمها بعينيه لحظة ثم قال : أتدركين معنى ذلك بالنسبة لى ؟ لقد جاهدتك كثيراً .. كما جاهدت نفسى ، فلاتخذليننى .. لن أتحمل ذلك !

خفت نور النشوة لحظة وتملكها شعور بالخوف .

– ماذا تقصد بأن أخذلك ؟

– ألا يكون حبك مجرد عبث . فأنت مقدسة عندى وحبك كذلك فإن كانت تخامرك أية شكوك فى هذا الحب فلتخبرينى الآن .

نظرت إليه ولم تنبس بكلمة . لم تسمع سوى تنهدات الرياح وعناق قطرات المطر للأرض والنوافذ ، وسمعت أيضاً دقات قلبها . هذى العيون تطلب منها الصدق والأمانة . كيف تخبره أنها أكذوبة فى لباس بشر وأن لاحق لها فى هذا الاسم الذى يناديها به ؟ قد يبعده ذلك عنها وتتحول نظرة الحب إلى إزدراء . لا .. إنها لاتستطيع أن تتحمل ذلك ، لاتتحمل أن يخرج من حياتها فينكسر قلبها وقلبه . ودارت المعركة بداخلها .

– أحقاً تحبيننى ، أجيبينى ؟

أذابها الحب والشوق إليه فتعلقت بكتفيه وهمست إلى شفتيه : نعم أحبك ... أحبك بكل دقات قلبى .. وذرات جسمى .. ونفحات روحى .

وطفقا يتعلمان الحب الأول لكل منهما ويطرقان بابه . ثم قال «مارتن» : حبيبتى ، لابد أن أخبر السيد «ستاندنج» الليلة ، قد يظنه جنوناً لما بيننا من حواجز ، لكننى سأفعل وقد تأكدت من حبك لى .

فقالت فى ارتباك : لا لاتفعل الآن .

فاهتز كيانه وترعرع فيه نبت الشك ثانية : ولم لا ؟ ألا يعنى الحب لك مايعنى بالنسبة لى ؟

– وماذا يعنى الحب عندك ؟

– يعنى كل شىء .. إننى أريدك زوجـــة لى .. إن لم يكن هذا حلماً فأنا أعرف من أنا ومن أنت .

خانتها الكلمات ولم تعرف ماتقول .. ياله من حلم لها أن تصير زوجة «مارتن» كم تمنّت أن تبوح له بالحقيقة وتسمع اسم «كرستين» يخرج من بين شفتيه . وسمعته يقول : يجب أن تعلمى ياحبيبتى أننى لم أقع فى مثل هذا الحب من قبل وهو كل شىء بالنسبة لى . أهو كذلك عندك ؟

– نعم . نعم ياحبيبى . نعم .

– لماذا إذن لانواجه الناس بحبنا ليكلأه النور ؟

كانت تحتاج إلى قليل من الكذب حتى تسرع برؤية «فيونا» وإنهاء الأمر فى أسرع وقت . فقالت لمارتن : حبيبى ، لقد تعارفنا منذ فترة

قصيرة وأنا أحبك . لكن لابد من التفكير ملياً قبل إعلان الأمر للزواج ولابد كذلك أن أكتب بالأمر لأبى .

– لك ذلك .

– كم أنت عظيم ! وكم أحبك . أمهلنى فقط بضعة أيام .

– علىّ أن أذهب للعمل الآن فقد أخذنى سحرك كثيراً .

– هكذا كنت لى .

– خبرينى بالله عليك إن أنت فكرت وعلمت أنك لاتبغين الزواج منى ، وسوف أتحمل ذلك .

آه لإخلاصه وصدقه . لكم تكره «فيونا» .

– لن يكون ذلك أبداً فأنا لاأبغى الحياة إلا معك .

– وهل تستطيع كريمة السيد «تشاليس» الثرية المدللة أن تحيا زوجة لمزارع ؟ قد أقول إننى فى المستقبل سأدخر مايكفى لشراء مزرعة لكننى فى الوقت الحالى أعمل لدى السيد «ستاندنج» فى الضيعة التى أنت صاحبتها الآن . تذكرى ذلك جيداً .

نظرت إليه فى قنوط وهى لاتملك أن تقر أنها ليست أكثر من كاتبة تكد من أجل لقمة العيش وأن الحياة معه هى الجنة عندها .

لكنه رأى فى هذا الصمت شكاً وحيرة فكبح جماح رغبة متأججة ليضمها إلى صدره ورأى أن ما فعلت هو عين الصواب . لابد أن تفكر .

استدار وسار إلى الخارج وتبعته ثم نادته همساً : مارتن . أحبك .

التفت إليها : حبيبتى .

ثم قالت والدموع تكاد تنذرف من عينيها : قد أسافر إلى لندن غداً لبعض الأعمال وسوف أشتاق لرؤيتك .

– وأنا كذلك . إننى الآن أدرك أن وجودك يعنى الكثير بالنسبة لى .

بعد أن خرجا ظهر أحد العمال يسأله عن شىء فقال لكرستين هامساً : سأحضر الليلة فى الثامنة والنصف فإلى اللقاء حتى الليل .

لم تشعر بالبرودة والمطر حولها وهى تنظر إلى «فارلونج» يختفى ظله ولم تذكر كذلك أنها قد وعدت «جلفرد» بالعشاء معه الليلة . إن هذا هو آخر شىء تريد أن تفعله ، لكنها لاتستطيع أن ترفض . لكن ماذا لو علم مارتن بالحقيقة ؟ ألن يظنها متقلبة القلب لاهيته ؟ تحول شعور الفرحة إلى إحساس بالتعاسة وهى تتخيل ماقد تحدثه تلك الأكذوبة من أثر .

* * *

الفصل السابع

مع مغيب الشمس أخذت الأمطار تتوارى من سوء مافعلت طول النهار . عادت «كرستين» إلى بيت الضيعة ورأت أن تبعث برسالة إلى مارتن مع أحد الخدم .

«تحتم علىّ الخروج الليلة فلاتأت . أحبك . كن دوماً مؤمناً بذلك»

«فيونا»

كم كرهت التوقيع بهذا الإسم بل إنها تكره كل الناس وكل شىء إلا «مارتن» . وأخذت تسترجع تحذير صديقتها «باربرا» من هذه التمثيلية وعواقبها ، ثم عادت تقرأ خطاباً كانت قد تسلمته اليوم منها تصف فيه سعادتها مع زوجها الضابط البحرى «آلن» رغم الحياة المتواضعة التى تعيشها معه ، فأحست بشىء من الحسد لصديقتها المؤمنة بأنّ المال لايهم ولاشىء يهم المرأة الحقة سوى الحب .. والزوج المناسب ... والبيت الذى يجمعهما . نعم فى الغد ستكتب إلى «باربرا» تحكى لها ما هى فيه . لابد أن تخبر أحداً . لسببٍ ما هى لاتستطيع أن تخبر «فيونا» لكنها تستطيع أن تفعل مع «باربرا» التى لابد ستبعث إليها بالنصيحة . إنها تعلم مقدماً ماسوف تقول .

ستنصحها بأن تخبر «مارتن» والسيد «ستاندنج» بكل شيء فى الحال وتكف عن التضحية بنفسها من أجل «فيونا» .

سمعت «كرستين» صوت سيارة بالخارج فعلمت أنه «جلفرد» فنزلت إليه وهو يثنى على أناقتها وجمالها .

– يالعطرك الفواح . إنك تطيرين بى من هذا الريف إلى قلب باريس . لكم أتمنى أن أجول بك الآن حقول «إليسيز» .

ضحكت «كرستين» وهى تقول : لكننى لا أود ذلك وأفضل عليه الريف ههنا .

– صحيح أن الريف جميل فى يوم معتدل الحرارة لكننى الليلة أريد أن أكون فى باريس !

– يالك من حالم . مافائدة «أريد» هذه ؟

– إننى أؤمن بالسعى وراء المستحيل .

تبسمت وهى تشمئز من نفسها . أليس هذا ماتفعل هى ؟ أليس فى حب «مارتن» سعى وراء المستحيل ؟ شيء مايجعلها تحس أنه لن يغفر لها مافعلت مهما سمت أسبابها .

فى الطريق أخذ «جلفرد» يحاول التودد إليها ومغازلتها . لكنها كانت تفسد كل محاولاته . هو حقاً فتى مرح ، يعيش الحياة فى بساطة ويريد أن يعطى كل ذى حق حقه فيمرح فى إجازته ويكد فى

عمله الوطنى الفريد كطيار حربى والذى تكتنفه أشد المخاطر . لكنه لايجد من نفسها تأثير «مارتن» بشخصيته القوية الفذة . ثم سألها «جلفرد» :

ألهذا الحد أنت منزعجة بما تقومين به من تمثيل ؟

– نعم .

– رغم أنها خطة غير عقلانية إلا أنها لن تسفر عن كثير مساوئ ومع هذا فيمكننى المساعدة .

تنهدت كرستين : أشكرك . لكننى لاأعرف بالضبط مايمكن أن تفعل .

– يمكننى أن أتقدم لخطبتك ، وتتحولى من «كرستين شو» إلى مدام «جلفرد» .

– ياله من تفكير مضحك .

– أنا رجل سريع فى اتخاذ القرارات ، وقد سكن قلبى لرؤيتك .

– ومايدريك أنى لست بمغامرة على استعداد للخروج من هذه التمثيلية والتزوج بضابط شاب لمجرد اكتساب اسم وثروة .

– أما الثروة فليست عندى ثروة وأما الاسم فهو فى انتظارك . وأنا أعلم أنك لست مغامرة بل أنت حمقاء خيالية جميلة ازدردت من الطعام فوق ماتطيق لأجل صديقة لها . أليس الأمر هكذا ؟

– أنا فعلاً حمقاء لكنى لست بالجميلة .

– لكنى أراك كذلك ومازال العرض سارياً للزواج منك .

– إنك أنت الأحمق . ليس من المعقول أن تتقدم لخطبة أى امرأة تصادف ، ومع هذا فأنا لاأقبل ، رغم شكرى لك .

أوقف جلفرد السيارة والتفت إليها : هذا ما أسميه أنا برود الدم . ألا يثيرك مجرد العرض ذاته ؟

هزت رأسها مبتسمة : ولاقيد أنملة .

– أو لاأملك أى نوع من الجاذبية ؟

– على النقيض تماماً . لكن الفتاة لاتقبل أيما رجل تقابل لمجرد أنه جذّاب .

– وماذا يجب أن يحوز الفتى ليحظى بالقبول ؟

شعرت بالضيق وتمنت أن يتوقف عن ذلك . إن الزواج بالنسبة لها يحمل المعنى الذى عرفته «باربرا» أو حتى «فيونا» ... وهو أن تمنح المرأة نفسها للرجل الوحيد الأوحد فى العالم ... وهذا الوحيد الأوحد لابد أن يصطفى بعناية بالغة .. بل إن الأمر فى الواقع يتعدى مرحلة الاختيار ؛ لأنه ماإن ظهر هذا الرجل فى حياتها فلن يكون لديها شك أو تردد .

ثم أخذ «جلفرد» إحدى يديها برفق وأدناها من شفتيه وهو يقول : فلتذوبى قليلاً أيتها المرأة الجليدية .

– أرجوك يا«جلفرد» . إننى فى حاجة إلى صديق ، وأنت الوحيد الذى يعرف كل شىء عنى وأنا فرحة بالخروج معك . لكن ليس أكثر من صديق .

– أهناك شخص آخر ؟

– نعم .

– وهل يعلم بما تفعلين ؟

– لا .

– هل سيضايقه أن يعرف ؟

– نعم . لقد زججت بنفسى فى شرك قد تكون نتيجته انكسار قلبين . أيكفيك هذا ؟ اتركنى وحدى إذن .

وانفجرت فى البكاء وألقت بوجهها بين يديها . دهش «جلفرد» لموقف الفتاة فأخرج منديلاً وأعطاها إياه قائلاً : لاتفعلى ذلك . لاتبكى . أرجوك . إننى لم أقصد ذلك . أعدك بألا أضايقك . وعليك أن تذهبى إلى فيونا وتنهى هذه التمثيلية فى الحال .

أحست كرستين بشىء من الراحة وكأنها قد أفرغت طاقة مكبوتة بداخلها ، وتحول «جلفرد» إلى موقف الصديق وهو يسديها نصيحته الأخيرة بأن تذهب إلى ذلك الذى تحبه ، وتقص عليه الأمر وتتوقف عند هذا الحد .

– أنت محق فى ذلك . محق تماماً .

– أما أنا .. فهذه أول مرة أخرج لقضاء أمسية مع فتاة جميلة لأجد هذه الفتاة تبكى شخصاً آخر .

– أعتذر لك .

– لاعليك . دعينا فقط نتناول العشاء معاً ليبدو الأمر طبيعياً .

وقد أراحها ذلك خاصة بعد أن ودعها «جلفرد» قائلاً : رغم كل هذا إلا أننى استمتعت بالأمسية وعلى استعداد للخروج معك وقتما تشائين .

وقررت أن تتبع نصيحته وتنهى الأمر . ستقول لمضيفها : إنها تسلمت رسالة من صديقة لها فى غرب انجلترا وهناك ضرورة ملحة لذهابها . المهم أن تقابل «فيونا» دون أى تأخير . لكنها تذكرت حفل عيد ميلاد السيد ستاندنج . ليس من الذوق أن تسافر قبل الحفل الذى سيقام أمسية السبت . عليها إذن الانتظار حتى الأحد لتخبر السيد ستاندنج بالأكذوبة الجديدة وتسافر يوم الاثنين وفى الوقت نفسه ترسل إلى فيونا كى تنتظرها .

* * *

فى أمسية السبت اتخذ مارتن طريقه إلى الضيعة وهو يحمد الله أن الجو خلا من الأمطار رغم البرودة ، كذلك كان القمر يبعث بلونه الفضى على أرجاء الريف . وماكان مارتن ليجهد نفسه فى ارتداء

الزى الرسمى للحفلات لولا أن تلك التى يظنها «فيونا» أرسلت إليه برسالة تؤكد عليه فى الحضور وقد كتبت فيها :

«لا تقلق بشأن الرقص فسوف أعلمه لك . وليبق سر حبنا أسير القلوب حتى حين ، لكن الحفل لن يكون حفلاً حقيقياً بدونك ياحبيبى » .

إن مارتن يعرف كل أعيان المنطقة فقد لعب الكريكيت مع معظم الفتيان ، والكثيرون يدعونه فى حفلاتهم رغم أنه مزارع بل إن السيد ستاندنج يعامله معاملة الصديق لا الأجير . أما الليلة فهو يرى نفسه فوقهم جميعاً لأن فيونا قبلته زوجاً لها . دخل البيت وأعطى إحدى الخدم معطفه ووشاحه وهو يتلفت حوله ليرى فيونا . من المؤكد أنه سيرتبك عند الرقص ولن يجد من الكلمات الكثير ليقول لسيدات الحفل ، فهو ليس رجل حفلات ، لذا كانت تراوده رغبة أن يعود طائراً إلى بيته المنعزل ، ورغبة أخرى وهى أن يندفع إلى هذا الجمع يخبرهم أنه سيتزوج «فيونا» . أخيراً وقف على باب غرفة الاستقبال الفسيحة التى تتلألأ بالأنوار وتصخب بالثرثرة والضحك والموسيقى ثم أخذ يقارن بينها وبين الليل الساجى بالخارج . وطفق يخفى توتره بأن أشعل النار فى سيجاره وأخذ ينفث الدخان وهو يتفحص الحاضرين من بينهم «جلفرد رنويك» فى زيه العسكرى ، بل إنه لاحظ أن كل الحاضرين من الشباب يرتدون الزى العسكرى فكان هو أصغر من يرتدون الزى الغير عسكرى، فآنس من نفسه نقصاً عن أترابه .

ثم رأى كرستين تراقص السيد ستاندنج فتابعها بنظره وهو يحس جمالها الفتان وجسدها السمهرى المتسق . والتقت العيون من فوق كتف الرجل الأشيب الذى يراقصها فرأت مارتن بعينيه الزرقاوين وبشرته السمراء التى تشع ضياءً بفعل ياقته البيضاء الناصعة . كانت تخشى ألاّ يحضر . لكن هاهو «مارتن» قد جاء بعد أن قضت نصف ساعة من الترقب. إنه يتراءى لها ملكاً متوجاً فوق كل الحاضرين . انتهت الرقصة فأسرعت تحيى «مارتن» ، لكن العيون كانت تراقبها وكان أحد المدعوين على مقربة منهما ، فرحبت به رسمياً . لكن العيون كانت تتحادث .

ثم جاء السيد ستاندنج يحيى ضيفه : عمت مساء يامارتن . إننى سعيد لتمكنك من الحضور .

– تقبل وافر التهانى بهذا اليوم السعيد ياسيدى .

فأطلق الرجل ضحكة خلصت من أعماق قلبه وهو يقول : ما كان لى أن أحتفل بعيد ميلادى لولا أنى أردت التخفيف عن القلوب والاحتفاء بالشباب .

وعادت نظرات مارتن تطلق سهامها على «كرستين» . كم كان يتمنى لو يقول لها : أنت معبودتى ولكم أريد أن أفضى أشواق قلبى عند قدميك . لكن لسانه قد التصق بحلقه وإذا بـ«جلفرد» يأتى ويأخذ بذراع كرستين ليراقصها . فلم تستطع أن ترفض رغم أنها كانت فى

أشد الضيق من ذلك . وأخذ السيد ستاندنج كعادته يحادث «مارتن» فى شئون المزارع ، لكن عينا «مارتن» وقلبه لم تكن إلا لتنصب على تلك الفتاة الرابضة فى أعماق القلب . وسرعان ما دارت الدائرة وجاء الدور على «مارتن» ليراقص «كرستين» ، وسرها أن تسمع إحدى السيدات تقول لزوجها عن «مارتن» : هذا الفتى وكيل أعمال السيد ستاندنج جميل القسمات ، زكى المحيا .

فكانت تضحك فى نفسها وتقول : نعم هو زكى ، أو لم يبد ذلك بأن وقع فى غرام تلك الفتاة الصغيرة التى هى أنا !

وأخيراً جاءت اللحظة التى كانت تخطط لها وتشتاق إليها طول هذه الأمسية فكان الحديث هذه المرة عن طريق خفقات قلبين ملتصقين .

– هل تستمتع بالحفلة ؟

– لا ياحبيبة القلب . إننى أكره الناس حولنا وأريد أن أطير بك إلى حيث لاأحد سوانا . أتعلمين أنك الليلة ملاك حل من السماء ؟

– أويعجبك فستانى ؟

– إنه يأخذ بالألباب .

– هل أخبرك بشىء يا«مارتن» ؟

ومست شفتاه أذنها لبرهة وهو يسأل : ماذا ؟

– لكم أفضل أن أكون فى أردية العمل أجوب الحقول معك .

فضغط على يدها بعنف وهو يقول : ولكم أتمنى أن يكون ذلك إحساسك الحقيقى . حقاً أتمنى ذلك .

– إنه كذلك . الحفلات لاتمثل شيئاً بالنسبة لى . ماأريد إلا أن أكون معك فى المزرع .

– كم أريد أن أؤمن بصدق ذلك .

– أقسم لك أنك تستطيع أن تفعل .

– هل لى أن أراك الليلة منفرداً ؟

فطفقت تتلفت حولها ثم قالت : نعم . فى ثوانٍ . عليك فقط أن تقودنى إلى باب الردهة ، ثم تسير بى إلى غرفة المعيشة .

سأتظاهر بأننى أسأل عن العشاء .

– وماذا كنت تفعلين منذ تركتك ؟

– كنت أترقب لقياك .

فرد وهو يكاد يكون مغلق العينين : لكم يبهرنى حديثك الليلة . إننى أسمعه ، ولاأكاد أصدّقه .

– إن ما أقول هو تعبير عن قليل مما أحس .

– إننى لاأدرى مافعلت بى لكننى الآن لاأستطيع العيش بدونك ، فالوقت يزحف على وأنا لاأستطيع التركيز فى عملى ؛ لأنك قد اتخذت من دماغى عشاً لك يافيونا .

سكتت برهة وهى تحس ضيقاً من هذا الاسم ، ثم همست فى أذنه : فلنخرج من هنا . وسرعان ما اكتنفهما ظلام غرفة الاستقبال فكان الحب ثالثهما .

– اغفرى لى عنف حبى لك .

– بل ذاك ماأريد ، وهكذا أحبك .

– لكننى لاأستطيع مواصلة ذلك . علىّ أن أخبر السيد ستاندنج .

لم يحن الوقت بعد ياءمارتن» .

فتنحى عنها قليلا وهو يتفحص وجهها : ألم تثيقنى بعد من حبك لى ؟ لو لم يكن حباً لماذا إذن قبلتيه ؟!

أحست كرستين بالتعاسة والخوف معاً . فأخذت تقول : إننى متيقنة ياءمارتن» لكننى ... لكننى مازلت بحاجة لأيام قليلة .

– إننى لاأستطيع تفهمك .

– لاتحاول . عليك فقط أن تصدقنى .

– إننى مستعد لعمل أى شىء تطلبين ، وإن كان ذاك هو الموت . فألقت بنفسها بين ذراعيه قائلة : وأنا أيضاً ياأعز وأحب الناس عندى لاتسىء فهمى . إننى بحاجة إلى بضعة أيام غداً سأسافر إلى لندن وعندما أعود سيتغير كل شىء ، وسوف نخبر العم «بوب» بحبنا العنيف هذا .

فوقف حائراً من قولها واستشعر شيئاً خفياً يفسد سعادتها الداخلية ، ورغم هذا يحس من شوقها إليه أنها ملك له .

ورأت الحيرة فى عينيه فضجرت نفسها ، لكنها لابد مستمرة فى هذا الخداع حتى تقابل فيونا وتنهى الأمر .

وعندما سألها «مارتن» عن سبب نزوحها إلى لندن أعادت على مسمعيه الكذب : لقد تلقيت رسالة عاجلة من صديقة لى فى حاجة إلى العون .

– حبيبتى ، الغارات مستمرة وأنا أخشى عليك .. بل إننى لا أريدك أن تبتعدى عنى .

– أعرف ذلك وأحس مثله . لكننى لابد فاعلة ، فهلا رافقتنى غداً إلى محطة القطار لنقضى بعض الوقت معاً قبل الرحيل ؟

– سأفعل أى شىء ترغبين . لكن عجلى بالعودة من الجنوب ، وأرجو أن تكونى عندئذ قد اتخذت القرار النهائى الأصوب لى ولك .

وأخذت هذه الكلمات تتردد على مسمعيها طول ليلتها بل ورافقتها رحلة السفر إلى لندن . هذه الرحلة التى ستنهى الأمر .

* * *

الفصل الثامن

كانت «كرستين» تتجه مباشرة إلى «بريمهفن» حيث تقيم «فيونا» مع «بيتر» . ومرت فى طريقها بلندن فلم تقف عندها بل أحست أنها كانت تمقت حياة المدينة خاصة بعد تلك الفترة التى قضتها بين أحضان الطبيعة و.. «مارتن» . لكن شيئاً من القلق تملكها وهى تطالع جريدة الصباح لتعلم أن وابلاً من قنابل الألمان قد أصاب قلب «بريمهفن» فى الليلة الماضية . وكانت المفاجأة عندما علمت أن فندق «كنجزواى» الذى كانت تقيم فيه «فيونا» مع زوجها قد تلقى ضربة مباشرة فى الليلة الماضية أودت بحياة ثلاث وعشرين من قاطنيه وأصيب الباقون . وكاد الفزع أن يقتل كرستين وهى تفكر فى صديقتها الصغيرة الرقيقة المفعمة بالحيوية . أين هى الآن ؟ أهى من الأحياء أم من الأموات ؟ هل كان بيتر معها ليلة أمس ؟ أقتلا معا بعد حب عاصف وزواج لم يعلم به أحد ؟

أكانت تلك الغارة الفظيعة نهايتهما ؟ أيضاً ماذا عساها أن تفعل لو كانت « فيرنا » الآن راقدة فى إحدى المستشفيات بل الأسوأ لو كانت جثة هامدة ؟ ثم أخذت « كرستين » تحث الأفكار تترى إلى مزرعة «ستونهيد» ومشاهدها الخلابة حتى تثوب إلى رشدها ثم إذا بها تنادى فى داخل نفسها : «مارتن» لو أنك معى الآن هنا !

وبينما هى تجوب المدينة المنكوبة شعرت كم كان « مارتن » محقاً عندما تمنى أن يشترك فى الحرب ويرد على الألمان ضرباتهم بل وتمنّت هى الأخرى أن تفعل مثل ذلك .

جَن الليل ولم تعثر «كرستين» على «فيونا» . طمأنها قليلاً ما علمت من أن الزوج «بيتر هوليز» قد انتقل مع فرقته من المدينة منذ يومين . مما يعنى أنه على قيد الحياة . أما «فيونا» فهى فى إحدى المستشفيات المحلية ، لكن أيها بالضبط ، لم تعرف بعد . كان عليها أن تجد مكانا تبيت فيه فاتجهت إلى فندق على أطراف المدينة التى يتوقع أن تتلقى ضربات أخرى الليلة . وبعد أن انفردت «كرستين» فى غرفتها تثاقلت عليها الهموم وزادها أن تذكرت إصرار السيد «ستاندنج» على أن تحدد له مكان إقامتها مما أجبرها أن تعطيه عنوان فندق «كنجزواى» . ماذا لو علم عن طريق الصدفة ما حدث للفندق ؟ لابد أنه سيحضر شخصياً . وما كادت «كرستين» تواجه وحشة الليل حتى سمعت أزيز الطائرات وصوت القنابل التى زلزلت أرض الفندق فخر ساجداً وفى غياهبه الفتاة وما حوت رأسها من هموم .

* * *

وقف «مارتن» بالقرب من مزرعة «ستونهيد» تداعب وجهه نسمات الصباح الباردة المنعشة ، وقد أخذت السحب تتدافع فى الأفق الأزرق . بالأمس نزلت باكورة الصقيع تؤذن بانتهاء الصيف وحلول

الخريف الذى سرعان ما يتغير لونه إلى اللون الأبيض الفاحش ، لون وجه الشتاء بقصر نهاره وطول لياليه الحالك ظلامها . وقف «مارتن» ودوائر الدخان تخرج تترى من فمه وهو يتعجب من نفسه . إنه دائماً يتجاوب مع الطبيعة لكنه الآن لا يستشعر شيئاً من جمالها ، كما لا يستطيع الإخلاص فى عمله . لقد شرد عنه عقله وشردت روحه . إلى أين ؟ هناك .. إلى حيث انطلقت تلك الفتاة .. فيونا؛ كما يعرفها . لم يحدث قط أن تنكأ ساعات النهار وتطول هكذا . لكم يتوق لعودتها وقرار زواجها منه ، لقد حاول جاهداً أن يرسم بخياله صوراً لها وهى تجئ وتذهب وتمرح مع أصدقائها .. هناك .. فى المدينة ، لكنه لم يستطع ، وعجز الخيال . أحس الآن وقد ابتعدت عنه أنها ضاعت منه ، وهذا ما لا يطيق . لشد ما كان خوفه من هذا الحب الجارف الذى اتخذ منه عبداً له .. ذاك الذى خال نفسه أقوى الرجال حصناً ومنعة .. استحوذ عليه شبح فيونا وكاد الجنون يعتريه لشدة شوقه إليها . ثم أفاق على صوت محرك سيارة السيد ستاندنج ، الذى تألق وجهه شحوباً وقلقاً . وكانت صاعقة حطت على رأس الفتى إذ أخبره الرجل الأشيب «ستاندنج» ما سمع من أنباء قذف «بريمهفن» وفندق «كنجزاوى» واحتمال إصابة «كرستين» التى يخالونها «فيونا تشاليس» .

– إننى فى مأزق . ماذا سأقول لوالدها ؟ ما كان لى أن أتركها تسافر ؟ على الآن أن أتوجه شخصياً إلى «بريمهفن» لكن الطبيب قد منعنى بسبب «القلب» .

وكانت المفاجأة قاسية حتى إن «مارتن» لم يستطع أن يخفى قلقه أو يستر تلهفه للقيام بالمهمة عن السيد «ستاندنج» فاندفع قائلاً :

– دعنى أذهب يا سيد «ستاندنج» . سألحق بالقطار التالى فأنطلق ولا أعود إلا وفيونا معى .

– تلك هى الفكرة يا «مارتن» . إننى أبداً لم أفكر فى إرسالك لكنك أنت الشخص المناسب لهذه المهمة حقاً . اذهب وعد بها دون أن تسمع لما تقول . إنها مسئولية عظمى يا بنى . وفى لمح البصر كان «مارتن» إلى جوار سيده فى سيارته متجهين إلى بيت الضيعة ليأخذ مارتن ما يلزم السفر ، فإذا برسالة تليفونية كانت قد وصلت فجعلت من الشك حقيقة . إنها من مستشفى «ليدى مارجريت» بالقرب من «بريمهفن» تفيد أن فيونا أصيبت فى غارة الليلة الماضية وتخبر السيد «ستاندنج» أن بها إصابات طفيفة لا تستدعى القلق واتخذ «مارتن» من عبارة «إصابات طفيفة» زريعة للتخفيف عن نفسه وهو يستحضر ذاك الجسم الجميل الرقيق الذى كان بين يديه مؤخراً .. وذاك الوجه الصغير المشبوب بالعاطفة .. أيتحمل قذف القنابل ودوى المدافع ؟ وكيف وهو طريح الفراش ؟

وتملكه الحنق على هؤلاء الألمان فأقسم لينالن منهم ! وانطلق .

* * *

حل المساء و«كرستين» مستلقية على سريرها بالمستشفى بعد أن عاونتها الممرضة على الاغتسال استعداداً لسكون الليل . لم يكن قد مضى عليها أكثر من أربع وعشرين ساعة فى المدينة ومع هذا كانت تحسها قرناً من الزمان . وكيف لا وقد شهدت فى هذه الساعات القصيرة ما تقشعر له الأبدان ويشيب من محياه الغلام . إن آخر شىء تتذكره هو صوت صفارات الإنذار يخلفه دوى المدافع والقنابل ثم الانفجار المروع عند قذف الفندق تلته لحظة من الرعب فانهيار فألم قصير حاد توجه فقدان الوعى . وكانت كرستين قد أفاقت وهى فى سيارة الإسعاف فوجدت ضماداً على عينيها فأخبرها الطبيب بإصابتها إصابة غير خطيرة ، وكانت – كما قيل لها – من السعداء أن نجت بحياتها .

وما كان لها تحت وطأة آلام البدن وآلام الوحشة إلا أن تفكر وتفكر . إنها لم تستطع العثور على صديقتها ، وقد أجبرتها إدارة المستشفى على إملاء رسالة تليفونية لذويها . لابد أن السيد ستاندنج سيكشف الحقيقة عما قريب . وماذا سيقول مارتن ؟ إنها تشتاق إليه بقلبها وروحها ولأشد حاجتها إليه فى هذا العمى المؤقت الذى هى فيه .. تحتاج إلى حبه .. إلى قوته .. إليه كله . ولأنها كانت حتى الآن «فيونا» وليست «كرستين» فلم تستطع أن تبعث إليه . ثم إذا بممرضة تأتيها وتمس ساعدها برفق وهى تقول : آنسة تشاليس ..

شاب أنيق يبغى رؤياك . لقد سمحت له الرئيسة بالدخول الآن رغم انتهاء ساعات الزيارة ؛ لأنك من مصابى الغارات .

خفق قلب «كرستين» : ومن يكون ؟

– إنه يدعى السيد فارلونج من الشمال .

زاد خفقان قلبها ولم يكن من مكان يتلقى اندفاع الدم سوى وجهها . إنه «مارتن» .. مارتن قد حضر إليها .. بالفرحتها .. ثم بالضيقها .. عليها أن تواصل الكذب .. لابد أن تفعل حتى تجد «فيونا» . فالسر ليس ملكها وحدها بل هو ملك لفيونا كذلك ، وما كان لها أن تصرح به إلا بإذن منها ، لكن الأمر تزداد صعوبته فى هذه الظروف الجديدة .

فى اللحظة التالية أحست أصابع دافئة قوية تمسك بيدها وسمعت صوتاً حبيباً إلى نفسها تذكره جيداً .

– فيونا .. عزيزتى .. حبيبتى المسكينة .

وقاربت البكاء وهى تقول : مارتن ، حبيبى ، مارتن ، وكانت بين ذراعيه تضع عينيها المضمدتين على كتفه ، فقامت الممرضة بنشر ستار حول سريرها . التصقت به والقنوط يمتلكها والأسى يمتلكه .. والغيظ يلهب قلبه ضد هؤلاء النازيين الأشرار . بالأمس القريب ودع هذه الفتاة وضاءة الوجه تشع نوراً وسناء واليوم يراها فى حالة

تستحق الرثاء وقد أفسدت الجروح ذاك الخد الرقيق .. وهذى العيون المضمدة .. وهذا الجسم الصغير المرتعش .

فدمدم قائلاً : لا تبالى يا حبيبتى . أنا إلى جوارك ، أرعاك وسأذهب بك إلى البيت . حمداً لله أنك تنعمين بالحياة ، حمداً لله .

– كانت تجربة فظيعة ، لكنها قد انتهت . ولا شىء يضير مادمت أنت إلى جوارى .

– أمازلت تحبيننى إذن ؟

– إننى أهيم بك حباً .

نطقت بهذه الكلمات واليأس يكتنفها . لكن هذا اليأس لا يعرف إلى قلب «مارتن» سبيلا . إن قلبه ليصدح كما تصدح الطير فرحاً . لقد أكدت له الممرضة أن إصابة العينين ليست بالخطيرة وأن الفتاة تستطيع مغادرة المستشفى بعد عدة أيام . كذلك فقد تأكد من حبها له .. من رعشة يديها ولهفة شفتيها والكلمات التى انسابت من بينهما . فحمد الله ثانية على نجاتها .

– السيد «ستاندنج» فى حالة سيئة . سأتصل به الليلة لأخبره أنك بخير وأننا سنعود مجرد أن تستطيعى السفر .

فقالت «كرستين» بصوت محموم : نعم أخرجنى من هنا . أريد أن أعود إلى المزرعة . أنا بخير تماماً . أريد أن أعود .

فرد وهو يربت على خصلات شعرها : ستعودين يا حبيبتى . ستعودين .

قعدت متوسدة قلبه وهى تزيح عن خيالها الشبح الجاثم بينهما لكن الكرب تملكها لما تذكرت «فيونا» الحقيقية ، ثم إذا بهذا الاسم الذى لم يعد يحمل إلا معنى الرعب المميت يتلفظ به «مارتن» :

– ماذا جرى لصديقتك مدام «هوليز» ؟

– لست أدرى ، لكن المؤكد أنها قد أصيبت فى قذف الليلة قبل الماضية . إننى لم أرها .

– سأقضى الغد فى البحث عنها حتى أجدها لك ، فلابد أنك قلقة بشأنها وشأن زوجها .

– لقد علمت أن زوجها كان قد سافر مع فرقته .

– إذن ، علينا أن نجد هذه الصديقة المسكينة لنقدم ما نستطيع من مساعدة .

– نـ .. نعم .

ومكث الفتى يحاول إدخال السرور إلى نفسها وقد زاد حبه لها وتضاعف . لم يكن يدرى أن «مارتن فارلونج» يمكن له أن يعيش مثل هذا الحب الغامر مع أى من البشر . وكان يظن أن ذكر مدام «هوليز» والبحث عنها يؤدى غرضه ولم يدر ما يعتلج نفسها من قنوط من جراء ذلك . إنها على يقين أنه إن وجد «فيونا» فسوف تنتهى اللعبة ويحل أذىً قد لا يمكن التحلل منه .

قضت ليلة أخرى من الكرب الذى زاد من وطأته الألم الشديد الذى لم تكن تستشعره من قبل ربما كانت لاتزال تحت تأثير المخدر . وفى الصباح تبين أن مارتن قد طلب لها أن تنقل فى غرفة خاصة ، ثم جاءتها باقة من الزهور وسلة مليئة بثمار العنب ومعهما بطاقة قرأتها عليها الممرضة :

إنك لا ترينهم رأى العين لكن الشذا لابد نافذ إلى قلبك فيذكرك بشذا الطبيعة الريفية ، فلتحرصى دوما على استنشاق ذاك الشذا . أحبك . مارتن . فما كان من الممرضة إلا أن تعجبت : بالشاعرية . أهو خطيبك ؟ دمدمت كرستين : نعم .. قد تقولين ذلك ، لكن ليس رسمياً بعد .

تبسمت الممرضة وأعطت كرستين زهرة فوضعتها على شفتيها وأخذت تملأ خياشيمها بعبيرها حتى اختلط بالدم ، فكانت نشوة . قبيل الظهيرة دخل مارتن قائلاً بصوت ملؤه المرح والسعادة : أراك الآن متوجة على مملكة صغيرة رعاياها الزهور. فتنهدت وهى ترتمى إلى ذراعيه قائلة : حبيبى «مارتن» ، ما أبهجنى وأنت إلى جوارى . بالله كيف تسير شئون المزارع دونك ودون مزارعتك الصغيرة ؟

فتبسم ضاحكاً من قولها وقال : لا كانت ! خاصة دون وجود مزارعتى الجميلة الصغيرة . لكننى قد حادثت السيد «ستاندنج» على الهاتف فأخبرنى أن أنتظر هنا إلى جوارك حتى أعود بك .

– علىّ أن أتعجل الشفاء .

بعد ذلك ودون أن يدرى رماها مارتن بمفاجأة صدمتها :

أى حبيبتى ، لقد ذهبت إلى «بريمهفن» هذا الصباح وتمكنت من أن أتتبع أثر صديقتك مدام هوليز .

تخشبت «كرستين» بين يديه وسألت : أفعلت ؟

– نعم ، لقد أصيبت كما قلت وأحضرت إلى هذه المستشفى . فصديقتك يظلها نفس هذا السقف وأنت لا تدرين ، فقد أدخلت أنت قسم الرمد لإصابة عينيك أما هى فقد أصيبت إحدى قدميها . وأنا أنوى الذهاب إليها بعد أن أتركك وآخذ لها باقة من الزهور .

ألست تودين ذلك ؟

خيّم الصمت عليها وخارت قواها وأحست دواراً فانفصلت عن ذراعيه فرأى «مارتن» شحوب وجهها واضطرا بها يبدو أنها لم تفرح لوجود صديقتها . لكن كيف ذلك ؟

– حبيبتى ، هل أنت متعبة ؟ لقد تثلج وجهك !

– لا ، أنا بخير ..

نظر «مارتن» إلى الناقدة فرأى ظلمة الخريف كست السماء فعبس وجه الأرض . لقد كره اختناقة الصباح واشتاق للهواء النشط المنعش لموطن رأسه . لذا قال : لابد أنك ترغبين فى أن أفتح هذه النافذة على مصراعيها . أليس كذلك ؟

ولبثت غير قليل تفكر وقد وضعت يديها على عينيها المربوطتين . آه لو كانت تستطيع الرؤية .. لو كانت تستطيع أن تتصل بفيونا دون أن تتخذ «مارتن» أو أى أحد آخر وسيطاً . ثم قالت : اسمع يا «مارتن» ، إننى لا أريدك أن .. أن تقابل مدام «هوليز» فهى شديدة الخجل . أنا .. سوف أسأل إحدى الممرضات إن كان من الممكن أن أنتقل على كرسى متحرك إلى حيث تكون . هذا ما أفكر فيه .

وقف «مارتن» مستريباً من الأمر . هناك شىء يقلق حبيبته «فيونا» لا يستطيع هو أن يكتنهه . لم يبد عليها أى سرور لمعرفته مكان صديقتها . قال : حسنا إن كنت تفضلين ذلك فلأفعلن .

تحسست «كرستين» الطريق إلى يده وأمسكت بها ثم دنت بها من وجنتها وقبلتها بحرارة وهى تقول : حبيب القلب أنت طيب القلب أخضره ، لأشد امتنانى إليك . لكن لا تحفل بشأن مدام «هوليز» . سأهتم بها بنفسى .

– كما تشائين يا حبيبتى . والآن عليك أن تملى على رسالة أبعث بها لوالدك السيد «تشاليس» لأنه قد علم بما حدث ويريد رسالة منك .

ما كان «لكرستين» أن ترفض أو تؤجل لعدة أسباب أهمها أن «مارتن» سيشعر أنها لا تثق به فى شئونها الشخصية فأملت عليه ثم شكرته . وبعد أن مضى أحسّت بكرب عظيم وذنب أثيم لهذه السلسلة

من الأكاذيب والتى قد لا يتفهمها «مارتن» أو يتغاضى عنها عند تكشفها .

بعد جهد جهيد مع الطبيب وافق على أن تنتقل إلى حيث صديقتها ولا تطيل ، لكن هذه الزيارة لم تأت بالخير الكثير . كانت «فيونا» الحقيقية فى حالة يرثى لها وفى انتظار إجراء عملية أخرى فى ساقها وقبل أن يسمح لكرستين بالدخول قيل لها ألا تطيل ولا تعيل . فصدها ذلك عن أن ترفض توسلات «فيونا» لها بالاستمرار فى هذه التمثيلية ، حتى بعد أن كاشفتها بأن فى الأمر رجلا تحبه قالت فيونا : وماذا فى ذلك ؟ عودى إلى «ويكام» وارتبطى به . لكننى لا أستطيع أن أفشى السر الآن فأدفن حية فى تلك الضيعة أثناء سفر «بيتر» ولا أريد أن يضجرنا أبى أنا «وبيتر» . إنه سيعود إلى انجلترا قريباً وقد اعتزمت أن أخبره الحقيقة بنفسى فهذا أفضل بكثير من الرسائل والاضطرابات التى قد تحدث الآن . أرجوك يا «كرستين» . تجلدى واصبرى قليلاً .

– عندما يعلم أباك أنك قد تزوجت وأصبت سيغفر لك .

– لا . أنت لا تعرفين أبى . بمجرد أن يصل ذلك إلى علمه سيعود فى الحال حتى إن لم ينه عمله ، وقد يغفر لى لكنه لن يعفو عن «بيتر» . اصبرى من أجلى قليلاً يا «كرستين» .

وباءت كل محاولات «كرستين» بالفشل ولم تستطع أن تواجه «فيونا» بنقيصة حب الذات واللامبالاة بمشاعر الآخرين . لكنها على مشارف عملية جراحية ورقة «كرستين» لا تسمح لها بأن تضايقها فى مثل هذه اللحظة ، بل أمسكت بيدها وأقسمت ألا تفشى السر حتى تأذن بذلك ثم أضافت : كذلك يجب أن تنقلى إلىٰ غرفة خاصة ، مثل غرفتى .

– فى الحقيقة إننى غير مستريحة هنا لكنك تستطيعين أن تفعلى ما تشائين فأنا فى حالة من القنوط لا تسمح لى بالتفكير فى هذه الأشياء . إننى أحس أنى فى جحيم دون «بيتر» .

– حبيبتى المسكينة ! أمازلت تحبينه كل هذا الحب ؟!

– نعم لكنه سافر ولا أدرى إلى أين .. ربما إلى الشرق الأوسط . أخبرنى أنه لن يستطيع مراسلتى عدة أسابيع . أحمد الله له أنه لا يعلم بما حدث . وأخرج فم «كرستين» ابتسامة قصيرة وهى تقول : وها قد أصبنا كلينا .

يا له من حلم مروّع .

بعد أن رجعت «كرستين» إلى غرفتها لم تتمالك نفسها وأخذت تبكى وتصيح : إننى لا أريد أن أستمر فى ذلك . لا أريد .

لم تسمع صوت الباب يفتح «مارتن» وهو يدخل حاملاً فى يده باقة كبيرة من الزهور . عندئذ وضع «مارتن» الزهور جانباً وأسرع

يمسك بيدها مسائلاً : لم يا عزيزتى ؟ ما الذى لا تودين الاستمرار فيه ؟

استسلمت لقبضة ذراعيه ولمسة شفتيه على خصلات شعرها . فى هذه اللحظة بالذات كانت تريد أن تطلعه على الحقيقة لكنها وعدت «فيونا» . لم تجب عن سؤاله بل أخذت تفضى كربها وتعاستها بين ذراعيه . أظلم وجه مارتن وشعر بالحيرة ، كان دوماً يحس أنها تخفى شيئاً لكنه لم يستطع أن يعلم كنهه . أحس بحب عميق ورقة لحالها . وأخذ يسأل ثانية : ما الخطب حبيبتى ؟ إننى لا أتحمل رؤيتك حزينة أو مريضة . إنك تعنين الكثير بالنسبة لى وأى شىء يضايقك يضايقنى وقد صارت مشاكلك تخصنى . ثقى بى وأخبرينى إن كان هناك من شىء يقلقك.

هزّت رأسها دون أن تتكلم وتمنّت لو فعلت كما يريد لكنها قالت : وأنت كل شىء بالنسبة لى كذلك يا «مارتن» .

– عندما رحلت أخبرتنى أنك ستفكرين فى الأمر لإعطاء قرار نهائى فهل سيكون الرد «نعم» يا فيونا ؟

رغم كرهها لهذا الاسم قالت : نعم . نعم إعلم أننى أحبك أكثر من أى إنسان على وجه الأرض .

انحنى وأخذ يقبلها وهو يقول : لن أجعلك تندمين على ذلك أبداً ؟ وسوف أقضى بقية حياتى فى محاولة إسعادك ، ومحاولة أن أكون جديراً بك .

تملكتها رعشة قصيرة من جراء هذه الكلمة فقالت : لا تقل «جديراً» هذه .

– لكننى لابد أن أقر بذلك يا أجمل الناس لأن الأمر فى النهاية يكتنفه شىء من الطموح أن يتقدم «مارتن فارلونج» لخطبة «فيونا تشاليس» .

جفت الكلمات والعبرات وسكنت بين ذراعيه وهى تجاهد أن تبعد عن ذهنها رغبة إطلاق الحقيقة .

فى مساء تلك الليلة سألت «كرستين» إحدى الممرضات عن حالة مدام « هوليز » ، فأخبرتها أنها قد أجرت العملية الجراحية وكانت على ما يرام . أقلقها ذلك وزاد القلق أن جاءها الطبيب فى الصباح ورفع عصابة عينيها مقراً بأنها فى حالة جيدة وسوف تترك المستشفى غداً خاصة أن هناك حالات طارئة كثيرة . واستطاعت «كرستين» أن ترى ثانية رغم تقرح عينيها الذى اضطرها لأن تضع نظارة سوداء .

كان «مارتن» شديد الفرح لكنه لمح على وجه «كرستين» شيئاً من الاضطراب فسألها : أمازال هنا شىء يضايقك ؟

فتمتمت قائلة : لا شيء سوى .. صديقتى .. مدام «هوليز» .

– يمكنك أن توجهى إليها الدعوة إلى الضيعة بمجرد تحسنها ولا أظن السيد «ستاندنج» يتضايق من ذلك وهى صديقتك .

وأحست «كرستين» بالخجل من هذه الدعوة . آه لو علم «مارتن» من تكون مدام «هوليز» هذه . بعد أن رحل «مارتن» تلك الليلة ذهبت «كرستين» إلى «فيونا» تخبرها أنها ستخرج غداً .

– حسناً ، سأتولى الأمر هنا وقد أفكر فى الحضور إليك فى الضيعة بعد أن أتحسن قليلاً .

– هذا بالضبط ما اقترحه «مارتن فارلونج» لكنّه محال .

– إننى لا أرى فى ذلك شيئاً . فلا أحد يعرفنى هناك .

– أنت شديدة الحمق يا «فيونا» . إن هذا قد يؤدى إلى تعقيدات لا نهاية لها .

نظرت فيونا إلى صديقتها بشيء من الحنق وقالت : كنت أظن أنك لا ترغبين فى أن أعيش هنا فى هذه الوحشة البائسة .

ولم تستطع « كرستين » أن تحتج على هذه الفتاة المريضة المشرفة على الهلاك . إنها ستقضى ما لا يقل عن أسبوعين طريحة الفراش وقد يعود السيد تشاليس فى تلك الفترة ، فكان ذاك أملها .

* * *

الفصل التاسع

كم كان جميلاً أن تعود «كرستين» إلى الطبيعة التى نسيت فى نضارة أحضانها ودفء مشاعر ساكنيها كل همومها . وزاد من طمأنينتها أن «مارتن» ، إذ رأى الوقت غير مناسب ، لم يحادث العم «بوب» بشأن حبهما كما كان ينوى . لكن ثمة شيء آخر ضايقها قليلاً وهو أن «جلفرد رنويك» لم يسافر لأن الحمّى قد نالت منه فأقعدته ، وقد سعد لعودة «فيونا» التى يعرفونها ويتمنى أن تشرفه بالزيارة . إن الحقيقة التى يعرفها «جلفرد» تجعل «كرستين» تستشعر شيئاً من الخوف منه ؛ بل وأهم من ذلك أن «مارتن» يغار منه .

«مارتن» !! ماذا ستفعل حيال ما ينوى أن يقول للسيد «ستاندنج» وكيف تواجه عواقبه ؟ لابد أن الرجل ما إن يعلم بذلك فسوف يطلب إليها أن تكتب إلى والدها الذى لا تمت هى إليه بأدنى صلة . ياله من سخف !

أقبل الصباح فى حرصٍ ودلالٍ ، صباحٍ خريفىٍ يلتحف الريح ، وكانت «كرستين» قد عزمت على أن تقنع «مارتن» بتأجيل الإفصاح عن حبهما حيناً ؛ لذا أخذت تتهادى إلى مزرعة «ستونهيد» بعد أن تناولت الإفطا وقد بهرتها الطبيعة الخلابة والهدوء الساحر الفتّان

للطبيعة بعد العجيج والضجيج الذى عايشته فى المدن . هذه هى الجنة ، .. وتلك .. وزاد من هذا السحر والجمال استقبال عمال المزرعة لها واحتفاءهم بها بمشاعر رقيقة فياضة قلما توجد . ثم وجدت «مارتن» فى إحدى الحظائر يساعد فى إصلاح المِشْرحة التى يقطعون بها الشمندر ليكون مؤن شتاء للماشية . أضاء وجه «مارتن» لرؤية الفتاة ، وسرعان ما تشابكت الأذرع وخرجا إلى أحضان الطبيعة .

– يالسعادتى لرؤيتك . لكن ... ألا يجهدك السير ؟

– لقد عادت إلىّ صحتى فيما عدا تقرح عينى وبعض خدوش طفيفة .

بعد لحظة صمت أزاح «مارتن» الحاجز الأسود الذى كان يخفى عينيها الجميلتين وأخذ ينظر إليها ثم قال فى قلق : مازالت محتقنة قليلاً .

فضحكت ووضعت نظارتها قائلة : لا شىء يستدعى القلق .

– ما أسعدنى لمجيئك لرؤياى !

ارتعد قلبها لما تذكرت ما اعتزمته وابتهلت لله خاشعة أن يتفهم موقفها .

– «مارتن» ، أعلم أن لديك الكثير من العمل هذا الصباح لكننى لابد أن أحادثك .

– لا يسعنى إلا أن أوفر لك الوقت وقتما تشائين يا حبيبتى .

– تملكتها رعشة وقبل أن تتكلم أردف قائلاً : لكنك لن تقفى هكذا صيداً سهلاً لهذه الريح . هلم بنا إلى البيت .

سارت معه وهى تسأل : أمازالت «سوزان» هناك ؟

فرد فى دهشة : «سوزان» ؟ لماذا ؟

– أخالنى أغار منها .

– ياله من حمق !

– إنها جميلة .

ضغط يدها إلى جانبه وهو يقول : إننى لا أرى امرأة فى العالم سواك ، والعالم بالنسبة لى لا يحوى إلا أنثى واحدة هى أنت .

بعثت هذه الكلمات الشجاعة فى لسانها وما أن جلسا إلى دفء النار الموقدة فى غرفة معيشته حتى أتت ما تريد .

– «مارتن» ! إننى أحبك ، وأخالك تعلم ذلك . أحبك وأبغيك زوجاً لى ولن أتزوج سواك . لكننى فى اللحظة الآنية أراه من الأفضل أن نخفى شمعة حبنا .

خفت ضياء وجهه ونظر إليها بجد وخيبة أمل وقال : مقصدك ألا أحادث السيد «ستاندنج» ؟ لقد كنت أنوى المجيء إليه الليلة .

فقالت ورموشها ترفرف كجناحى عصفور وقع فى شباك صيد :

أود ألا تفعل . الواقع أننى ... أعلم أنه ستكون هناك بعض المتاعب .. والعم «بوب» لن يتصدى لها حتى ... حتى يعود السيد «تشاليس» ، وسوف يكون من الأفضل كثيراً أن ننتظر حتى حين .

أخذ يحدجها بعينيه وراعه منها أن تشير إلى والدها بـ«السيد تشاليس» ففهم أنها تقصد بذلك أن كلاً من السيد «تشاليس» والسيد «ستاندنج» سيعارضان الزواج بسبب الفارق الاجتماعى . نعم هذا هو الأمر ، هى تحبه لكنها لا تستطيع أن تجابه الصعوبات لذا تؤجل يوم الفصل . ومع هذا كانت خيبة أمل له .. لقد ظنها أشجع من ذلك . فلم يستطع أن يتكلم . هذا الحب الذى طرأ على حياته عنيف لدرجة أنه على استعداد لمجابهة العالم بأكمله من أجله . وكان يتمنى أن تشاركه «فيونا» نفس الإحساس . نظرت «كرستين» إليه فى قلق . إنها الآن ترى «مارتن» الجاف الذى رأته أول مرة ، لذا قالت : لا تغضب منى يا «مارتن» حاول أن تدرك أنه من الأفضل أن .. أن ننتظر حتى يعود .. أبى .

– فليكن إن كان هذا ما ترين .

– أعرف أننى أخيب أملك .

– الحقيقة ، نعمَ ترين أنى جدُّ أبىَ ، ربما كنت مؤثراً لنفسى إلى حد كبير ... جم الثقة فى نفسى بشأن حبنا ، فقد آمنت بأن حبك لى يعادل حبى لك وأنه ليس لديك ارتياب فى ذلك .

– ما عندى من ريب . أؤكد لك .

– أمتيقنة أنت ؟ يبدو لى أن لديك الكثير . فما من شك أنك تؤجلين الإفصاح عن حبنا خشية أن يحاول أحد إبعادنا عن بعضنا .

– كلا .. لكن ..

سكتت وهزت كتفيها فى قنوط . إنها لا تستطيع مصارحته ، وكلما أكثرت من الكلام ، كلما أحبكت حولها أحبال هذا الشرك .

بعد قليل اقتلع « مارتن » غليونه من بين شفتيه واقترب من كرستين ووضع يده برفق على كتفها ثم قال : حسن يا حبيبتى . لا تضطربى . لن أفصح بشىء حتى ترغبى أنت فى ذلك ، ولربما تكونين على صواب . ربما كان حمقاً منى أن أنتظر أكثر مما أستحق، ولتنتظرى حتى يعود والدك . إن كانت هذه رغبتك فهى رغبتى أيضاً .

وقفت الدموع حائرة فى مقلتيها . أتقبل أم تدبر ؟ لقد أحست أنها أقصته عنها كثيراً وطفقت تضيع ثقته فيها . ولم يبق من نشوة الحب

الذى كان بينهما إلا القليل بعد أن كان يفيض بلا سدود . همست قائلة : « مارتن » ! هل أقللت من حبك لى ؟

تملكته موجة أحاسيس عنيفة تكاد تقترب من الحنق .. إنها تفيض جمالاً ورقة وراء نظارتها السوداء ، وشعرها الكستنائى المتهدل . إنها تحبه لكنها تخشى من هذا الحب وقد حيره ذلك وأغضبه ، وقبل أن يكبح جماح نفسه كانت بين ذراعيه . ثم قال بصوت متحشرج : ما من حقك أن تكونى بهذا الجمال وهذا الإغواء ! ما من حقك أن تجعلى رجلاً يحبك إن لم ترغبى فى أن يرى هذا الحب ضياء الشمس.

فقالت وهى تكاد تبكى : لكنى أحبك .

– سمع كلاهما بابا يفتح ثم يغلق ، فخلى سبيلها وأسرع إلى النافذة ليرى ظهر سيده يبتعد عن البيت . فعاد إلى الفتاة بابتسامة كالحة : حسناً لقد حدث ما كنت تخشين . كان هذا هو السيد «ستاندنج» . لابد أنه حضر ليخبرنى بأمر من أمور الضيعة .

فرفعت «كرستين» يداً إلى شفتيها المرتعشتين : أتقصد أنه رآنا ؟

– نعم .. من الواضح تماماً أنه فعل .

– وما العمل إذن ؟

تساءلت وقد غاص قلبها فى لجة من القلق وذهبت عنها نشوة الاقتراب فلم تعد تبصر سوى المتاعب .

قال « مارتن » : أليس من الأحرى بنا أن نفصح عن حقيقة ما بيننا يا «فيونا» ؟

إن مجرد وقع هذا الاسم الذى قد تمقته بقية حياتها جعلها أكثر عزماً على ألا تستمر فى هذا الأمر أكثر مما تستطيع . فى يوم ما سيعلم كل من «مارتن» والسيد «ستاندنج» الحقيقة . فيارب قرّب هذا اليوم الذى تجىء فيه «فيونا» فتتحلل هى من وعدها لها . فى ذات الوقت هى لا تستطيع أن تزيد الأمر سوءاً بأن تعلن ارتباطها بمارتن وهى مازالت «فيونا» لا «كرستين» . أما «كرستين» فهو مبعث السرور كله أن تخبر العالم بهذا الحب .

أحس «مارتن» خفقان قلبه كذلك وهو يحدج الفتاة عن قرب . لم يكن ليستكنه ما يعتلج داخلها . كل ما استطاع استنباطه من مظهرها هو أن «فيونا» التى يعرفها فتاة ضعيفة مستريبة لا تجد العزيمة التى تقرّ بها عين حبها لأنها تخشى العواقب .

– حسن . فلنترك الأمر دون إلقاء اللوم عليك . أرى أنك لا تريدين أن تخبرى السيد «ستاندنج» أنك وقعت فى غرام وكيل أعماله، وتفضلين له أن يخالك تسترقين شيئاً من اللهو .

صعد الدم حاراً إلى وجنتيها واخترق الألم سويداء قلبها . إنها لا تطيق أن يظن بها مارتن ذلك ، فتجرعت الكلام . آه .. كيف تستطيع ؟

– آسف يا عزيزتى . لكنك لم تتركى لى بديلا .

– ما يكون ذاك الحب إن اعتقدت ذلك فىّ .

– إننى أحبك يا «فيونا» وأخالك تعرفين مدى حبى لك . أنت المرأة الوحيدة التى رغبت فيها زوجاً لى . لكن أنىّ للحب أن يكون من طرف واحد . إننى لا أستطيع أن أمنحك القلب والروح مقابل قلب منشطر .

جن عقلها لما تسمع وهى لا تستطيع أن تجيب كما تريد فقد غلّت يداها وعُقد لسانها . كم كانت تتمنى أن تثبت له خطأ تقديره وتظهر له مدى حبها . لكن وعدها لصديقتها المحبة المريضة الآن وقف حائلاً دون ذلك . فما نطقت إلا صمتاً .

ولم يكن هو غافلاً عن اضطراب وجهها لكنه فسره تبعاً لما يعلم عنها وهو الكذب .

– اسمعى يا حبيبتى . أكرر أنه لا لوم عليك ولا يسعنى إلا أن أقدم لك نصيحة . فلتنسى تماماً أنك أعلنت لى الحب . قد يهزك حبى أو يثيرك قليلاً ، لكن عليك أن تبتريه وتستغنى عنه . ولنعد إلى

سابق عهدنا . أنت الآنسة « تشاليس » ، وأنا وكيل أعمال السيد «ستاندنج» . لست أنت على استعداد لإقرار حبنا وأنا لن أأبى عليك ذلك . فلنذكرها ساعة . هلا فعلنا ؟

ظلت تنظر إليه ولا تجد إلا الصمت كلاما فما كان لديها ما تقول ، من توضيح للأمر . عاود «مارتن» الحديث : لا تضطربى هكذا . عودى إلى الضيعة وفسرى للسيد « ستاندنج » ما رأى على أحسن ما ترين . ألقى باللوم علىّ إن شئت . قولى إننى أسأت إليك .

ثم انفرجت شفتاه عن ضحكة قصيرة انشطر لها فؤاد «كرستين» وابيض وجهها من الحزن ثم تناولت وشاحاً كان قد سقط عنها وقد أخفت سحابة من العبرات إنسان عينها فلم تكد ترى ما هى مقدمة عليه . قالت بصوت متهدّج : الأمر مغمّىً عليك . إننى لأحبك . أحبك .. أحبك لكنك لست على بينة من الأمر .

طفق «مارتن» ينظر إليها من النافذة بعد أن خرجت تشق طريقها بين الرياح فرق القلب وأحس كأنما أطلق عليها سهاماً مسمومة ، بل تمنى لو أسرع إليها يرتشف العبرات من على خديها ويعيدها إلى دفء صدره . لكن كبرياءه وقف حائلاً دون ذلك . ثم اعتراه الضيق . إنها لا تحبه وإلا .. وإلا لما ترددت فى أن تعلم الدنيا كلها . فلتذهب إذن حيث تشاء !

فى البيت أخذ السيد «ستاندنج» يحادث «كرستين» عما رأى متعجباً ؛ لأنه كان قد تصور أن هذه التى يخالها «فيونا» أعقل من أن تنغمس فى علاقة لا تبغى منها سوى التلهى ؛ لأنها فى النهاية كريمة السيد «تشاليس» . كذلك أقر الرجل بأن «مارتن» غير خبير بالنساء وقد يقع فى حبها حقا فيكون ذلك ظلم له . كعادتها لم تجد «كرستين» ما تقول . ذاك العهد الذى قطعته على نفسها أمام تلك الفتاة المريضة وقف حائلاً دون أن تفصح عن حقيقة أمرها .

قضت «كرستين» أسبوعين دون أن ترى «مارتن» أو أن يذكر اسمه أمامها حتى كانت ظهيرة يوم أخبرها فيها السيد «ستاندنج» أن «مارتن» قد عزم على أن يلتحق بالجيش .

– أحقاً سيفعل .

– نعم .

– وهل وافقت أنت ؟

– نعم .

– أو كان ذلك بسببى أنا ؟

– ليس بالضبط لكن الأفضل أن تفترقا ، كما أن الفتى يشتاق إلى ذلك وربما أنه قد آن له الآوان رغم أنى لن أجد مثله ليدير لى المزارع .

أحست «كرستين» بالحنق الشديد على نفسها . إنها هى التى دفعت «مارتن» لذلك ، سينضم إلى الجيش يحمل السلاح ويرتدى الزى العسكرى وربما .. ربما يقتل ! إنه سيترك المكان الذى أحبه وكان يتمنى أن تشاركه إياه . لكنه الآن سيتركه ويرحل .. لماذا .. إنها السبب . لم تظن «كرستين» أن تتحمل كل هذا فقررت ، أن ترى «مارتن» قبل أن يرحل . على الأقل يجب ألا يرحل وهو ظان بها السوء ومستريب فى حبها .

خرج السيد «ستاندنج» متجهاً إلى «ألفرستون» وقررت كرستين أن تتصل بمارتن تليفونيا ليحضر إلى بيت الضيعة ، وليكن ما يكون . لكنها لم تجده ثم علمت أنه على موعد مع أحد المزارعين فى «كنجز آرمز» ولا أحد يعرف متى سيعود . ولم تجد الفتاة بداً من أن تذهب إليه فطلبت استئجار سيارة توصلها إليه .

كان «مارتن» يقف إلى جوار صديقه المزارع الذى كان يتحدث و«مارتن» لا يكاد يسمع ما يقول فهو شارد الذهن منخرط التفكير فى تلك الفتاة التى اجتاحت صحراء قلبه فأينعت فيها الأزهار بألوان شتى ثم إذا بها تهمل رعايتها فتذبل وتذوى . كانت صورة «فيونا» التى يعرفها لا تفارق خياله ، تتمثل له فى صور شتى . فأخذ يدعو السماء

أن تزيح عن نفسه هذه الهموم . بينما هو فى هذه اللجة من التفكير المضنى إذا برجل يطرق كتفه سائلاً : هل أنت السيد «مارتن» ؟

– نعم .

– هناك سيدة تنتظرك بالخارج .

كان المطر ثجاجاً وقد فرد الليل أجنحته السوداء على وجه الأرض فحجب عنها عين المساء .. وخرج مارتن يتعسس حتى رأى امرأة فى داخل سيارة وما أن فتح الباب فوجد «كرستين» بوجهها الشاحب وعينيها التعيستين حتى تملكته الدهشة : يا إلهى ! ماذا تفعلين هنا ؟

– أعلم أنك ستقول إنى جننت . لكننى كنت لابد أن أحادثك وقد علمت أنك مسافر .

أحس بانتفاضة فى جسده وبمتعة خفية . إنها تحبه . لو لم تكن كذلك لما اهتمت بشئونه ؛ لكن هذا الحب ضعيف بعض الشىء .

ثم سأل : أهذه سيارة مستأجرة ؟

– نعم .

– إذن اسمحى لى أن أحاسب السائق وتنتقلى إلى سيارتى الفورد.

انطلق مارتن بالسيارة وقد خيم الصمت عليها لفترة ولم يكن صوت إلا ضجيج الريح والمطر ، لكن كرستين لم تعبأ بأى شىء من

ذلك ولا بالإرهاق الشديد الذى تعانيه . وكان السبب هو وجود «مارتن» إلى جوارها . ثم مالبث مارتن أن أوقف السيارة فجأة والتفت إلى كرستين قائلاً : لماذا جئت ؟ لم تستطع أن تجيب . وفى لمح البصر كان «مارتن» قد أزاح عن عينيها نظارتيها السوداوتين ثم عاد يسأل : لماذا أتيت إلى هنا ؟ أهو فقط لكى تزيدى من تعذيبك لى ؟ ألكى تنالى ساعة أخرى من المرح ؟

اندفعت كرستين فى حنق : لا أيها الأحمق ، لا يا «مارتن» ! لقد جئت لأننى أحبك وأردت أن أقول لك ذلك . عليك أن تصدقنى مهما كنت تتصور عكس ذلك . عليك أن تصدقنى .

زادت دقات قلبه وأسرعت ، لقد بعث فيه هذا الوجه الشاحب الجميل وتلك الرائحة الفواحة بعثت فيه الجنون فما لبثا أن نسيا حتفهما فاتخذ الحب سبيله فى القلب عجباً . قالت «كرستين» والدموع تنذرف من عينيها : إننى أحبك يا «مارتن» . أحبك . كن صبوراً وحاول فهمى .

– لا تبكى يا حبيبتى فإننى لا أطيق ذلك .

– قل : إنك تؤمن بحبى .

تردد لحظة ثم أذعن قائلاً : حسن . سأصدق أى شىء تقولين . صحيح أننى لا أفهمك لكنك لابد تحبيننى قليلاً وإلا لما حضرت الليلة .

– أحبك ! يالها من كلمة . إن هذه الكلمة لا تكاد تصف ما أحس به .

– لكنك لازلت تخشين الناس .

– الآن فقط .. حتى .. حتى يعود .. أبى .

– أياً كان ما تقولين فإننى لا أستطيع العيش بدونك .

– وأنا لا أستطيع الحياة بدونك يا «مارتن» .

ثم تعانقا فسرى الدفء فى جسديهما . قال «مارتن» : إنك تجرين منى الآن مجرى الدم يا فيونا . إننى أحمق لكنك جعلت منى عبداً لك .

– لا ، بل أريد أنا أن أكون عبدة لك .

– ليس هذا واضحاً لكننى سأفترض أنك تقولين الحقيقة عندما تقرين بحبك لى .

قالت هامسة : الحمد لله . وغار وجهها فى كتفه ثم تذكرت ما كان السيد ستاندنج قد أخبرها به فسألت : «مارتن» ؟ هل حقاً ستلتحق بالجيش ؟

– نعم . بمجرد أن يجد السيد «ستاندنج» وكيلاً آخر .

اشتد التصاقها به وهى تقول : مارتن ، إننى لا أريد أن أفقدك .

– عزيزتى . إنك لن تفتقدينني لأننى سأرتدى الزى العسكرى ، بل إن احترامى لنفسى سيزداد رغم ما أقوم به من عمل نافع هنا .

ومرة أخرى صاحت باسمه ثم سكتت وهى ترتجف بين ذراعيه .

– لا تقلقى يا حبيبتى فهذا من أجل الوطن . قد يزيد ذلك صعوبة الأمر عليك ؛ لأنه عند عودة السيد «تشاليس» من «أمريكا» سأكون أنا جندياً صغيراً فى رداء الحرب مما سيزيد صعوبة إقناع والدك بأن هذا هو الشخص المناسب لكريمة السيد «تشاليس» .

ولم تقل «كرستين» شيئاً . فماذا عساها أن تقول ؟ إلا أنها أحست شيئاً من السعادة أنها ليست ابنة السيد «تشاليس» وأن ليس هناك من أحد يمنعها من الزواج بمن تحب . دخلت بيت الضيعة بعد أن ودعته وقلبها عصفور مغرد طرباً . لقد أحست أن ذلك الجدار ، الثلجى الذى كان بينهما قد ذاب فتلاشى . لكن ما أقصر لحظات سعادتها .

* * *

الفصل العاشر

كاد قلب « كرستين» أن ينخلع من مكانه لما رأت «فيونا» شاخصة فى بيت الضيعة وقد خرجت من المستشفى قبل أن يتم شفاؤها لنقص فى الأسّرة . وقد تصادف أن السيد «ستاندنج» كان يشترى جريدة من «ألفرستون» فوجدها واصطحبها إلى البيت . ولم يكن صعباً على فيونا أن تختلق مزيداً من الأكاذيب فقالت : إنها صديقة حميمة لفيونا التى يعرفها السيد «ستاندنج» وأن اسمها «فيونا» هى الأخرى . بل عندما رأت مايحدثه ذلك من إرباك اقترحت أن تنادى «فيونا» بكرستين ؛ فهو اسم آخر لها كانوا ينادونها به .

بهتت «كرستين» لكل ذلك وما أن اختلت بصديقتها حتى أخذت تعنفها لكنها مالبثت أن توقفت عن ذلك لما رأت من سوء حالتها الصحية . قالت «فيونا» فى عدم اكتراث كعادتها : هدئى من روعك ياكرستين . الأمر لايستحق كل ذلك . فقط أنا لاأريد أن أشعل ناراً مع العم «بوب» قبل أن يعود أبى . خبّرينى أنت عن ذلك الرجل الذى وقعت فى غرامه هنا .

– إنك لابد سترينه وسوف يزيد ذلك الأمر صعوبة علىّ ولا أدرى كيف سأقنع رجلاً مثله بأن يتغاضى عن هذا الإثم .

– ليس هذا إثماً . إنه عمل إنسانى دافعه الصداقة .

– قد لايراه مارتن هكذا . إنها تمثيلية معبأة بالأكاذيب ، وقد لايصدق «مارتن» أننى أحبه على الإطلاق بعد أن يعلم ذلك .

– سأجعله يصدقك .

نظرت «كرستين» إلى صديقتها بشيء من الإعجاب وهى تقول : ليت لى مثل عقلك فأنت دائماً تحصلين على ما ترغبين مهما كان الثمن .

– حبيبتى . أخبرينى بالمزيد عن حبيبك .

وأخذت «كرستين» تقص عليها ما حدث ومارأى السيد «ستاندنج» وماقال .

– ياللقدر . إنك الآن فى مثل موقفى مع «بيتر» . لكن لا تقنطى يا عزيزتى . سيعود أبى قريباً وتخبرى «مارتن» بكل شيء ثم تتزوجا .

أطرقت «كرستين» تفكر . هل سيتقبل «مارتن» الأمر بسهولة ؟

بعد العشاء حضر «جلفرد رنويك» برفقة صديق آخر فى سلاح الطيران بعد أن اتصل بالهاتف . كذلك كان السيد «ستاندنج» قد طلب «مارتن» ليحادثه فى بعض شئون الضيعة . لم يتمالك «جلفرد» نفسه عندما رأى «فيونا» الأصلية لكنه سرعان ما أصلح من حديثه متظاهراً بأنه على معرفة مسبقة بها هى الأخرى . بعد قليل اصطحب السيد «ستاندنج» وكيل أعماله إلى مكتبه وبقيت «كرستين» مع صديق «جلفرد» الذى لم تكن تعطيه بالاً ، وقد انشغل «جلفرد» بتجديد

صداقته مع «فيونا» . كان بصر «كرستين» شاخصاً إلى باب المكتب ، تنتظر أن يفتح فى أية لحظة فيخرج «مارتن» ويكون إلى جوارها . وما أن ظهر السيد «ستاندنج» مطلاً من الباب يطمئن على ضيفه حتى أسرعت إليه «كرستين» : ألن ينضم إلينا «مارتن» ليتناول مشروباً ؟

نظر إليها الرجل بشيء من التعنيف وهو يقول : أيتها الفتاة إن لديك الآن الكثير من المعجبين ، كما أن «مارتن» لايحب الحفلات وسوف يذهب لينام .

كان ذلك أكثر من احتمالها . إنها ما تحملت كل هذا السخف والأحاديث الجوفاء إلا انتظاراً للحظة لقائها بمارتن . فقالت متكلفة الضحك وقد توترت أعصابها : لايمكن ، «فيونا» تريد أن تراه . سأناديه . وأسرعت إلى داخل الغرفة لتجد «مارتن» يضع معطفه وقد بدا عليه التعب ، لكن وجهه قد تغير لونه لرؤيتها فقد خلعت نظارتيها فبدت أكثر إشراقاً من ذى قبل . همس وهو يتحرك تجاهها : فيونا! فأغلقت الباب وراءها وارتمت بين ذراعيه .

– مارتن ! مارتن ! ما أشد فرحتى لرؤيتك ثانية . لايصح لك أن تذهب الليلة دون أن تودعنى .

– أيتها الحمقاء الصغيرة ! سوف يرانا السيد «ستاندنج» .

– لايهمنى . لقد سئمت الكذب والخداع وكل شيء .

نظر إليها فى حيرة : لماذا الخداع ياحبيبتى ؟

هدأت «كرستين» قليلاً وتذكرت الدور الذى يجب أن تبقى قائمة عليه فقالت : لاتحفل بذلك . ربما أكون قد جننت قليلاً بل أنا حقاً مجنونة بحبى لك .

أسرعت خفقات قلبه وهو يفكر فى هذه الفتاة الجميلة التى تحمل له مثل هذه الأحاسيس ، لكن سلوكها كان أكبر من إدراكه ... رغم هذا أخذت بيده إلى حيث الضيوف ليتعرّف على الجديد منهم .

بعد قليل دق جرس الهاتف فاستأذن السيد «ستاندنج» ليعود بعد انتهاء المكالمة وقد تغير وجهه إلى وجهٍ قد تلقى صاعقة لتوه . وقف الرجل هنيهة ينقل نظره بين جنبات الغرفة ، ثم مر بيده على جبينه وكأنه يفكر فيما يفعل . فى تلك اللحظة كانت «كرستين» قد أدارت اسطوانة عنوانها «أنت كل شىء» وقد اختلست نظرة إلى «مارتن» وهى تقول : رغم أنها قديمة إلا أنها رائعة .

أخذ «جلفرد» يراقص «كرستين» على هذه الأنغام فوجد السيد «ستاندنج» فرصته ، حيث اتجه تواً إلى الأريكة الممددة عليها «فيونا» وجلس «مارتن» على حافتها ثم همس فى أذنها : عزيزتى . لقد تلقيت الآن أنباء مفزعة وعلينا أن ننقلها إلى المسكينة فيونا .

وقف مارتن وهو يقول : كم أنا حزين لذلك . هل هناك من شىء أفعله ؟ حملقت «فيونا» فى وجه السيد «ستاندنج» وقد بهت وجهها فجأة وتملك الخوف عينيها الواسعتين الزرقاوين . فسألت فى لهث : أى أنباء ؟

– إنها عن والد «فيونا» . صديقى المسكين «تشاليس» .

– ماذا حدث ؟ ماذا وصلك من الأنباء ؟

أخرج الرجل منديلاً وأخذ يمسح وجهه ثم نظر إلى الفتاة الراقصة فى حزن وهو ينتحب : ياإلهى . إنها ستكون صدمة عظيمة على هذه الطفلة الصغيرة . لكم كنت أتمنى أن أضحى بكل شىء ولايحدث ذلك . أمسكت «فيونا» بيده بأصابع كأنها الثلج وهى تقول : ماذا حدث ؟ ماذا عرفت ؟ أخبرنى بسرعة .

أنساه هلعه مقدار هلعها فقال : أنت أفضل من يخبرها بذلك بعد أن يرحل الضيف . علينا أن نرفق بها .

خرجت الكلمات من بين أسنان «فيونا» وهى تسأل : ماذا أخبرها ؟

– لقد وصلت الأنباء إلى لندن ونقلها لى سكرتير «تشاليس» بأنه أثناء عودته من «نيويورك» انفجرت به الطائرة . هذه المسكينة لن ترى أباها ثانية !!

كان الصمت قد خيم على الغرفة لانتهاء الاسطوانة ثم إذا بصرخة مدوية تخرق هذا الصمت .

– آه . أبتاه ! أبتاه !

فأسرعت «كرستين» ناحيتها وقد ذهل السيد «ستاندنج» لما رأى «فيونا» قد فقدت الوعى فتعجب قائلاً : ياإلهى ! ماهذا ؟

– فيونا . فيونا . ماذا حدث ؟ قالت ذلك كرستين فنسى «مارتن» أن يكبح زمام نفسه فأخذ بذراعها وهو يقول : عزيزتى .. لقد تلقى السيد «ستاندنج» أنباء ...

– ماذا ؟

فقال السيد «ستاندنج» بصوت يرتعش : إنها عن أبيك . لقد كان فى طريق عودته عندما وقع له حادث مروع وقد أخبرت مدام «هوليز» بذلك ولكننى لاأفهم ماذا حدث لها .

وقفت «كرستين» وقد أخذتها موجة جارفة فى طياتها فلم تعرف أين ستقرّ . لم يستغرق الأمر سوى لحظات وأدركت كل شىء ، وعلمت أنه لم يعد هناك مجال للتمثيل . وما أن أفاقت «فيونا» وأخذت تولول حتى اضطرت «كرستين» سعيدة أن تزيح حملاً ثقيلاً ناءت به فحل الصمت على الجميع .

طفق السيد «ستاندنج» يقلب النظر من هذه الفتاة إلى تلك محاولاً أن يؤكد لنفسه أن ماسمع قد جاءه عن طريق أذنيه . أما مارتن فقد وقف ساكناً وهو يتخيل الموقف ، فنال الغضب منه حظاً أوفر من الدهشة . إن أكثر شىء يمقته «مارتن» هو الخداع والكذب ، وقد يغتفر أشنع الأخطاء فى مقابل أن يعلم الحقيقة . نظر إلى «كرستين» ورأى كذباً من أعلى الدرجات شاخصاً أمام ناظريه لقد كانت أكذوبة حية

منذ أن حضرت إلى الضيعة . إنها ليست «فيونا تشاليس» ، إنها فتاة أجنبية لايعرفها ، اسمها الحقيقى «كرستين شو» .

إلتفتت كرستين لتلتقى عيناها بعينيه الزرقاوين فقرأ فيهما خزياً ورجاء ، أما العينين الزرقاوين فكانتا كتلتين من الثلج أخفق قلبها لما فيهما من قسوة ، واستحال جسمه إلى حجر .

لم يكن هناك من صوت إلا نحيب «فيونا» . بعد زمن جمع «روبرت ستاندنج» شتات نفسه وقال : هذا فظيع ... إننى لاأفهم ماتقولين .

– إننى حقاً آسفة ، بل إن أسفى أكبر من أن تعبر عنه الكلمات لأنك كنت جد طيب معى . لكنى سأحاول أن أشرح لك .. ولربما يتضح الأمر أكثر عندما أخبرك لم جئت مكان «فيونا» ... ولتلتفت إليها الآن أولاً .

دبت الحياة فى الحجر فتكلم : إن لم يكن هناك شىء أفعله فإننى أرجو السماح لى بالرحيل .

أخذ قلب كرستين يئن فجرت وراءه : مارتن . مارتن . انتظر لحظة وقل لى ماتريد أن تقول .

فالتفت إليها ورماها بنظرة كأنها سكين فرَقت مابين ناظريها .

ثم قال : إننى جد آسف . لكننى أعتقد أن لاشىء يقال بينى وبينك .

– لكن ... مارتن ... لابد أن أشرح لك .. حقاً ..

– حقاً إننى لاأريد أى شروح . كنت أخالك «فيونا تشاليس» لكنك لست كذلك .. وأنا لاأعرفك . هذا كل شىء .

سقطت على الأريكة وكأنه أطلق عليها رصاصة ، ولم يعد لوجهها لون . وقبل أن تتمكن من الكلام كان مارتن قد خرج . وأفاقت على صوت نحيب «فيونا» فلم تجد وقتاً للتفكير فى نفسها والتفتت إلى تلك المكروبة .

بعد أن قارب الليل الانتصاف كانت «فيونا» قد نامت بعد أن أعطاها الطبيب مهدئاً وبعض المقويات ، فجلست «كرستين» إلى السيد «ستاندنج» وكان رجلاً طيباً وعطوفاً لا يتعجّل فى حكمه على أحد ، ولايقسو إن حكم .

– إن ماصنعت شىء خطير ياعزيزتى . وهو كما تعلمين ضد القانون . لقد قمت بمخاطرات عظيمة وارتكبت جرماً عظيماً فى حق المسكين «تشاليس» . هل تدركين ذلك ؟

هزت «كرستين» رأسها وهى تقول: لاأحس أننى ألحقت أى أذى به . إنه لم يعرف .. ولن يعرف أبداً . لذا لاأستطيع أن أحس ولن أحس أنى آذيته .

فتنهد الرجل تنهيدة طويلة وقال : حسن . ربما أنك أنت أكثر من أوذى . هكذا أرى .

– أنا جد متيقنة من ذلك .

ولاح لها «مارتن» فأحست سيفاً يشج رأسها .ثم سأل الرجل : لماذا فعلت ذلك يافيونا .. عفواً .. ياكرستين ؟

وبدأت تقص عليه ماحدث بشىء من الإسهاب بمسحة الأسى . فما كان منه إلا أن رأى فيها فتاة حالمة مندفعة زجّت بنفسها فيما لاتطيق نتيجة جبن «فيونا» وحبها لذاتها وقد حل عليها العقاب من جرّاء ذلك . ثم قال : علينا أن نحاول إصلاح الأمر . لكنه سيحتاج إلى شىء من التوضيح فى المنطقة هنا . أليس كذلك ؟

– كلا . إننى لاأريد أن ألحق الضرر بسمعتك ، لذا لابد أن أرحل أنا و«فيونا» فلا يرانا أحد ولايسمع عنا شيئاً .

– وماذا عن «مارتن» ؟

أخذت كرستين نفساً عميقاً ثم اشتعل وجهها الصغير الأبيض بلون حزين وهى تقول : إنه لن يغفر لى . لقد مضى دون أن ينتظر منى تفسيراً .

– إن مافعلت هو من أسوأ الأشياء لديه . لقد عرفت «مارتن» طيلة حياته ، فهو ليس شخصاً عادياً .. إنه لم يكن ليقابل شيئاً كهذا بابتسامة كما قد يفعل شخص مثل «جلفرد» . إنه جاد ، شديد التمسك بالصدق . وأخالنى على حق عندما أقول إنه يحبك . فتعجبت «كرستين» : لكننى أنا أحبه . إننى مجنونة به ولم أكن ألهو معه كما

تظن . إننى على استعداد لأن أسير معه حتى آخر الكرة الأرضية إن أراد .

نظر الرجل إليها فى دهشة وهو لايملك إلا أن يحس الصدق فى عينيها .

– حسن . إن كان هذا إحساسك فإن الأمر يختلف .

– هذا حقاً ماأحس لكن «مارتن» لن يغفر لى .

أخذ الرجل يهدئ من روعها مبيناً أن المحب دائماً يخال الكمال فيمن يحب ومن ثم لم يكن بغريب أن يتلقى «مارتن» الأمر على تلك الصورة . ثم طلب منها أن تخلد الآن إلى النوم بعد هذه الليلة الليلاء وأن عليها أن ترسل إلى زوج «فيونا» تخبره بما حدث .

ما أن خلت «كرستين» إلى نفسها حتى تصارعت الأفكار والإحساسات تترى ، ماذا سيكون من مارتن ؟ هل ستفقده ؟ لابد أن تحادثه فى الغد . لابد .

كذلك ولأول مرة تحت سقف هذا البيت تحس أنها ليست محتالة لقد استعادت كينونتها تردفها روحها . لم يعد لفيونا أب ، لكن لها زوجها وثروة أبيها . أما «كرستين» فإنها لاتملك شيئاً . إنها أكثر الناس إحساساً بالوحشة فى هذا العالم .

* * *

الفصل الحادى عشر

ضل النوم طريقه إلى عينى «مارتن» فى تلك الليلة فتركهما فى انتظار وترقب دائمين . فأخذ يشغل نفسه بأشياء كثيرة ليس لها معنى . لقد اتخذ قراره بأن يغادر المنطقة كلها مع أول بصيص للصباح الجديد . لابد أن يبتعد عن هذا المكان .. عن هذه الفتاة ، «فيونا» أو «كرستين» أو أياً ماكان اسمها .. بل ويبتعد عن كل شىء يذكره بها . حتى وإن كان معنى ذلك أن يدير السيد «ستاندنج» المزارع بنفسه ، لأنه إن بقى فقد يصيبه الجنون .

كان «مارتن» فى حالة ذهنية لايحسد عليها . كان كمن أصابته حمى .. أو غضب فما كان ليحتمل مجرد التفكير فى تلك الفتاة التى أحب ، فهى المرأة الأولى والوحيدة التى أفنى قلبه فى حبها . وأخذ يعنف نفسه : كان على أن أعلم أننى كنت أحمقاً أن استسلمت لسلطان مشاعرى . كان علىّ أن أتعلم الدرس من أمى فأعلم أن ما من امرأة فى الوجود يوثق بها . لم يكن فكره ينصبّ على سبب مجئ «كرستين شو» لتقوم بدور «فيونا تشاليس» . فهو لم يعرف شيئاً عنها ولم يفكر فى أن يفعل . إنها مجرد أفّاقة . وهذا يكفى . وهو إن ارتأى شيئاً فهو أنها إنما فعلت ذلك من أجل المال .. أو اللهو أو كلاهما . وعلى ذلك

فقد تخيل أنها كانت تلهو معه كذلك ومن ثم عرف الآن سبب رفضها لخطبته . إنها لم تجرؤ على ذلك وقد تيقنت أنه يوماً سيكتشف اللعبة التى خدعت بها الجميع .

لما عاد بذهنه إلى الوراء وأخذ يستذكر كيف كان يخالها رائعة .. بعيدة المنال لأنها كريمة السيد «تشاليس» ووريثته .. لما تذكر تلك اللحظات الجميلة التى قضاها معها وتلك الإحساسات السامية التى كانت تخيم عليهما ، أحس بشوق لأن يأخذها بين ذراعيه ويعاقبها على فعلتها بأن يقتلها تقبيلاً . لكنه عاد يعنف نفسه على هذه الأفكار . إنه الآن لايطيق مجرد المساس بها . إنها ليست سوى فتاة لاهية من أصدقاء فيونا الحقيقية . لكنه طول ساعات هذه المعركة الليلية التى اتخذت من نفسه أرضاً لها لم يستشعر عدم الاكتراث بتلك الفتاة فهى من إحدى طبائعه الحادة المتحفظة إنه إما أن يكون حباً أو كراهية . أما عدم الاكتراث فلا .

فى الصباح سيركب أول قطار إلى «مانشيستر» ويستبدل ملابسه المدنية هذه بأخرى عسكرية ، ليكون جندياً . نعم . هذا هو ماتتوق إليه نفسه كى ينسى التوتر والاضطراب العاطفى الذى أحدثته تلك الفتاة .. ليذوب .. وتذوب نفسه فى خدمة الوطن . لكم يتمنى أن يرسل بعيداً ليكون فى معمعان المعركة . حينئذ لن يكون لحب تلك الفتاة أو لأى شىء آخر نصيب من نفسه ، فسوف يصير ترساً

من تروس عجلات الشاحنة الضخمة التى تحمل الوطن إلى النصر المبين . حينئذ سيصب جام غضبه وثخين عواطفه ضد العدو الأكبر – ألمانيا .

أذن ظلام الليل بالانقشاع ، لكن السهاد كان لصاحبنا خليلاً ، فشق طريقه وسط خفيف شعاع الصباح كى تفطر عيناه على منظر الطبيعة الخلابة التى يعشقها . بل ربما ليودعها . وماكاد يفعل حتى قفزت إلى مخيلته تلك الفتاة ثانية . ثم عاد إلى البيت وقد وجد «سوزان» تهبط إليه فطلب منها أن تعد له كوباًمن الشاى وهو يحاول أن ينال إغفاءة بسيطة كى يبدأ رحلته .

كانت لحظة تناول «مارتن» للشاى هى اللحظة التى وجد فيها النوم طريقه إلى مقلتى «كرستين» بعد ضلال بعيد «فاستيقظت متأخرة . ومااأن فتحت عينيها ورأت أشعة الشمس الضعيفة وقد استرقت طرقاً مختلفة إلى داخل الغرفة حتى وثبت من فراشها وفتحت النافذة لتجد باكورة صقيع الشتاء التى حطت فى الليلة الماضية قد ذابت ، فكانت السماء تصطبغ بلون أزرق اعتراه الشحوب ، وهبّت ريح شمالية عاتية تؤذن بحلول فصل الشتاء . لكن جمال الحدائق الغناء التى تحيط بالضيعة والأفق الرائع للريف لم يحرك عواطفها لأن شيئاً واحداً هيمن على فكرها فأرعبه ، وهو أنها تأخرت فى نومها وقد لاترى «مارتن» ثانية .

نزلت «كرستين» إلى غرفة «فيونا» فوجدتها متورمة الأعين حزينتها ، لكنها كعادتها لم تفكر فى أحد سوى «فيونا» . فقد كانت تكتب خطاباً إلى بيتر وما إن رأت «كرستين» حتى أخذت تدسها فى أعماق شئونها الشخصية : عليك أن ترسلى هذه الرسالة إلى «بيتر» ، كذلك قال العم «بوب» إن سكرتير أبى سيحضر إلى هنا وستكون هناك العديد من الرسائل والبرقيات للرد عليها ...

لقد شبعت «كرستين» عبثاً فى شئون الآخرين ، لكنها ماأن فكرت فى أن تنطلق طلباً لمارتن حتى دخل العم «بوب» يخبرها أن مارتن قد رحل .

- رحل ؟ إلى أين ؟

- إلى «مانشستر» ليركب القطار الذى سيقلع بعد قليل . وقد حاولت الحديث معه لكنه صلب الرأى ولايريد أن يراك أو أن يسمع شيئاً عنك . إنه يحس أنك خدعته وخدعت الجميع . لقد صنع منك معبودة له .. لكن .. يقول إنه لايحمل حقداً عليك .. لكنه رأى الأفضل ألا يكون هناك لقاء يضر بكليكما . كنت أريده أن يبقى على الأقل حتى يصل الوكيل الجديد ، لكنه رحل . كان الرجل سيقول المزيد لكن «كرستين» قاطعته بأن جرت مسرعة إلى غرفتها وانكفأت على مخدعها منخرطة فى البكاء والنحيب . ياله من عقاب أليم على إثم قليل . إن كل ما ارتكبت من إثم هو محاولة مساعدة صديقة لها

وإن كانت الطريقة آثمة . أهكذا يرحل دون أن يمنحها الفرصة كى تشرح له ؟ إنه إذن فظ غليظ لايحبها ... ولايستحق حبها كذلك . لكنها سرعان ماأدركت رغم ذلك .. فظاً كان أو متزمتاً فهو الرجل الأول والوحيد الذى أحبته ولن تحب سواه .

أحست كرستين أن المعركة قد انتهت ... دامية ، وأنها لم تعد تملك قوة ، ذهنية كانت أو بدنية ، كى تساعد «فيونا» فى مشاكلها الخاصة . أحست أنها فى حاجة إلى هواء جديد كى تستعيد توازنها قبل أن تلتفت إلى صديقتها ، فارتدت معطفاً وسارت تجاه «ستونهيد» شىء ما بداخلها كان يجذبها إلى ذلك المكان الذى عملت فيه كمزارعة والذى شعرت فيه بالسعادة الغامرة أول ماجاءت لتقوم بدور «فيونا» . سارت حتى وصلت إلى الحظيرة التى شهدت أول مشاهد حبها ، وكان أحد العمال خارجاً منها فحياها وهى لاتدرى أأجابت أم لا ، لكنها دخلت وأغلقت الباب وراءها ، وقد شخص لها «مارتن» كأنه واقف أمام عينيها فما استطاعت أن تحجب عبرات ذرفتها عيونها الدامية ، فرمت بنفسها على كومة من التبن وبقيت ساكنة يخنقها اليأس وهى تصرخ : اغفر لى ياماارتن . اغفر لى . لقد أحببتك وأقسم على ذلك .

فى تلك اللحظة كان «مارتن» على البوابة الخارجية يسأل «لوقا» الذى ألقى التحية على «كرستين» منذ قليل ، عن السيد «ستاندنج» ، فأخبره أنه ليس فى المزرعة .

– عجيب ، إنه ليس فى بيت الضيعة كذلك . لابد أنه ذهب إلى «ألفرستون» إذن .

وبعد أن تحدث معه «لوقا» بشأن رحيله والتحاقه بالجيش أخبره أن تلك الفتاة التى اعتادت العمل هنا بداخل الحظيرة ، فعبس وجه مارتن وهو لايستطيع أن يحدد . أيقصد «فيونا» ؟ اللعنة ! ليس هذا اسمها . إنها «كرستين» .. «كرستين شو» .. حسن . إن كانت هناك فهو لايريد رؤيتها . لكن .. إن كانت هناك .. فماذا تفعل ؟

كان «مارتن» على وشك أن يستدير تجاه سيارته لكن رغبة أقوى كان لها الفضل عليه بقية حياته ، دفعته إلى أن يسير إلى الحظيرة ويفتح بابها .

أرسلت الشمس أشعتها إلى داخل الحظيرة فأظهرت جسم فتاة تكورت فوق كومة من التبن ، ساكنة سكون النائم ، ويكتنف ذراعها وجهها الصغير . عرف «مارتن» جيداً هذا الجسم الرشيق وهذه الرأس التى تشبه حبة البندقة ، وعرف كذلك أن أعماق نفسه قد تزلزلت لرؤيتها ، فوقف شاخص البصر مسحوراً .

إزورّ رأس «كرستين» ورأته فهبّت واقفة فى لهفة وصاحت : ياإلهى ! أنت ؟!!

لم ينبس «مارتن» بكلمة . فقط نظر إليها منزعجاً لما لحق بوجهها من شحوب وشيبة ، وقد انتشرت عليه الدموع كوجه طفل صغير . لم يكن أبداً وجه مغامرة لاهية لاتحفل بما فعلت . الحق أن منظر هذا الوجه الشجىّ الذى تصببّ دمعاً قد ألحق الهزيمة بمارتن فلم يستطع أن يقول أياً من الكلمات القاسية والاتهامات اللاذعة التى كان يتخيل أنه سيصبّها على هذه الفتاة إن رآها . فلم يفعل سوى أن نظر إليها منتظراً أن تبدأ هى الحديث .

وثابت «كرستين» إلى نفسها قليلاً من هول المفاجأة فقالت :

كنـ ... كنت أعتقد أنك سافرت .

– فاتنى القطار .

– أحقاً ؟

– ... سألحق بالقطار التالى .

– حسن .

أخذت هبة ريح بالباب فأغلقته فصارا وحدهما فى الحظيرة الخافت نورها وقد انعزلا عن العالم وكان كل منهما لايستطيع أن يحول بصره عن الآخر وبداخلهما عجيج لايجد لنفسه متنفساً . ثم اندفعت «كرستين» قائلة : إننى أعرف ماتظن بى فقد أخبرنى السيد «ستاندنج» . إنك تظن بى كل سوء ولم تك تنوى رؤيتى ثانية .

فقال بحشرجة : إننى لاأظن بك كل سوء . بل عليك أن تقرى أن اعترافك ليلة أمس كان فجيعة لى .

فلوت رأسها بشىء من التحدى وهى تقول : ولماذا يكون كل هذا منك.لقد فُجع العم «بوب» كذلك لكنه حاول أن يسمع ويتفهم أما أنت فلم تفعل سوى أن خرجت وحكمت علىّ دون أن تسمع منى .

– أقر بأنه ليس لى الحق أن أحكم على أحد . لكننى كرهت تلك الأكاذيب التى قلتيها لى ولكل الناس .

– أو تظن أننى كنت أستمتع بذلك ؟

فرماها بنظرة غاضبة ثم قال : لقد أديت الدور بمهارة !

– كان علىّ أن أكون ماهرة فيما أقوم به . لقد وعدت «فيونا» أن أحضر هنا وأقوم بدورها حتى يعود السيد «تشاليس» .

– نعم . لقد أخبرنى السيد «ستاندنج» الحكاية كلها . لكن هل تظنين أنك محقة فى أن تحضرى بدلاً منها لمجرد أنها تخشى أن تتزوج الرجل الذى يفترض أنها تحبه جهاراً ؟

– لقد أحبته .

– لاأسمى ذلك حباً . لقد كان ذلك جبناً منها ألم بكثير من البرءاء ولاأصدق قيد أنملة أنك أنت الأخرى تسمينه حباً .

قالت كرستين بضحكة بها قليل من مرح : أشكرك على المجاملة . لم أك أظنك تخالنى قادرة على الحب مطلقاً .

انتحى ببصره عنها وقال : إننى لاأعرف ولم أعرف ماأؤمن به . لقد حيرتنى كل الحيرة . فى وقت من الأوقات خلتك تحبيننى لكن ..

– وكنت أخالك تحبنى لكنك لم تكن .. فقد تخليت عنى مع أول ابتلاء . فعاد بنظره إليها فى حنق : هل ستلقين باللوم علىّ ؟ لقد أحببتك وأنا أعرفك امرأة أخرى ، و ...

قاطعته قائلة : نعم . أعرف . وأعرف كذلك أننى ارتكبت إثماً فظيعاً وأعترف بكل ماقلت من كذب . لكننى كرهت الكذب وكرهت الأمر برمته . أما وقد بدأت فلم أستطع التراجع . لو كانت لديك دراية بأحاسيس البشر لشعرت بعذابى لذلك . لكنك لست بشراً ، وما أنت إلا رجل سمت مبادئه عن كل البشر حتى أنك لاتطيق الحياة . آه .. إننى أكرهك !

وانخرطت «كرستين» فى البكاء وقد أخفت وجهها بين يديها ، فاقترب منها ببطء وقد تغضن وجهه وقال : إننى حزين أنك تخرجيننى من طائفة البشر . ربما أكون صعب الإرضاء ولا أغتفر الزلات بسهولة ، لكننى كذلك لاأمنح عواطفى بسهولة . لقد حطمت

تمثالاً كنت قد صنعته لك . ولم يكن سهلاً علىّ ... إنك لاتدرين ماصنعت بى ...

قالت بصوت مكتوم : وأنت لاتدرى ماصنعت بى !!

أحس «مارتن» قلبه يخفق بتلك الموجة العارمة القديمة والشوق إليها . لكنه كبحها . قال : يبدو أن كلاً منا قد جرح الآخر جرحاً عميقاً إلى حد ما .. الأمر كله لعين .

فنظرت إليه بعينين تملأهما الدموع قائلة : ألا تستطيع أن تدرك كم كان الأمر كريهاً لى ؟ إننى عندما وقعت فى غرامك أردت أن أخبرك بالحقيقة لكن «فيونا» لم ترض . فى كل مرة كنت تقول : إنك تتمنى لو لم أكن وريثة السيد «تشاليس» كنت أتمنى أن أخبرك أننى لاشىء ولاأحد ، أننى يتيمة ... عاملة على الآلة الكاتبة ..أقتات ببعض جنيهات فى الأسبوع ، حتى زجت بى فيونا فى هذا الأمر اللعين .

نظر إليها «مارتن» وهو يقول بصوت مرتعش : صدقينى ياعزيزتى ، كنت سأكون فى منتهى السعادة لو علمت أنك عاملة يتيمة ، فكونك كريمة السيد «تشاليس» كان شوكة فى ظهرى ، وقد خلتك ليلة أمس مجرد فتاة مجتمع لاهية من أصدقاء تلك الـ«فيونا» قامت بهذا الدور لهواً ومرحاً .

– لقد كنت فى لجة من الخطأ .

ونظرت فرأته قلقاً تعباً ، ورأته كذلك جد عزيز عليها . لكنها استدارت وسارت ناحية الباب وهى تقول : الأفضل أن أرحل ، فما من معنى لحديثنا . إنك لاتفهمنى ولن تفهمنى فنادى عليها ولأول مرة باسمها الحقيقى : كرستين . لاتذهبى .

التفتت إليه : كم أحبك أن تنادينى بهذا الاسم . وكنت أتمنى لو كان هو الاسم الوحيد الذى ناديتنى به .

– كنت أتمنى ذلك أيضاً .

التفت عنها وهو لايعرف لماذا ناداها . إنه لم يبرأ من الطعنة التى وجهتها إليه ولم يغفر لها . لكنه أردف وقال : لاأود أن أسافر ونحن أعداء . فلنترك الأمر هكذا .. بأن نكون أصدقاء .

كررت فى مرارة : أصدقاء !!

فقال فى ألم : ربما يكون ذلك أيضاً صعب علينا ، لكننى لاأستطيع أن أتخطى هذا الأمر .. لا أستطيع .

أحست أنها إن بقيت دقيقة أخرى فسوف يتنحى عنها كبرياؤها وترتمى فى أحضانه تسأله الصفح والمغفرة . لكنها قالت بصوت متحشرج : لافائدة من الحديث . إننى لا أريد أن نكون أعداء . فلنكن

أصدقاء على كل حال ، ولاأعتقد أن أحدنا سيرى الآخر ثانية . أتمنى لك حظاً سعيداً يا«مارتن» وداعاً .

وقف حائراً يريد أن يقول الكثير ولايجد الكلمات . أحس شيئاً غريباً وكأن نهر مشاعره الفياض تجاهها قد جف ، وأنه صار عقيماً من كل العواطف . الشيء الوحيد الذى علم أنه يريده هو أن يبتعد عن «ستونهيد» وينخرط فى الحرب . فتركها تمضى وقد أحس حلم حبه يتداعى أمام ناظريه .

* * *

الفصل الثانى عشر

عادت «كرستين» إلى البيت وقد نضبت مآقيها من العبرات فما استطاعت أن تبكى أو تتباكى . إن عذابها الآن أشد مما كانت تتخيل للمرء عذاباً . لم يجلب هذا اللقاء القصير مع «مارتن» إلا الألم لكليهما ، فقد تثبتت أنها فقدته إلى الأبد ، وماكانت تظنه بهذه الصلابة . رغبة واحدة الآن تسيطر عليها وهى أن تغادر الضيعة .

وماكانت لعبرات «فيونا» وتوسلاتها عليها من تأثير هذه المرة ، فلربما أنها نالت بعضاً من قسوة «مارتن» وقد عزمت على الرحيل وصممت عليه ، فما كان من «فيونا» إلا أن ثابت قليلاً فأخذت ترثى لما آل إليه حال كليهما من جراء هذه اللعبة المجنونة .

حاول السيد «ستاندنج» هو الآخر أن يثنيها عن عزمها لكنها أقنعته أن هذا هو الأفضل للجميع . فقال لها : إن كنت ترين ذلك فليكن ماترين . هل .. هل رأيت «مارتن» ؟

– نعم رأيته وعلمت أن لن يغفر لى أبد الدهر . لقد ضاع إلى الأبد وأنا لن أحاول رؤيته . سأعود للخدمة فى سلاح النقل بمجرد أن ينصلح حال عينى .

ولم يحاول السيد «ستاندنج» الاعتراض على مارأت «كرستين» وفى الصباح اصطحبها إلى محطة القطار وهو يقول لها فى رقة متناهية : سأظل دوماً أعتز بك . وأرجو أن تكتبى لى دائماً ، وإن أردت مكاناً لقضاء الإجازة فستظل الضيعة دوماً مفتوحة الأذرع لك . امتلأت مآقيها بالدموع وهى تجيب : إننى لاأدرى لماذا أنت بمثل هذا العطف معى بعد كل ما اقترفت .

– سنمحو هذا ياعزيزتى . عودى متى شئت .

وكانت «كرستين» فى حالة لاتسمح لها حتى بمجرد مجاراة هذا الرجل الأشيب فى حديثه ، لكن ماتأكدت منه هو أن ماحدث لاينمحى ، وغاصت هى داخل القطار تودع كل شبر من هذا الريف بعينيها فى لجة من التعنيف لنفسها . إنها لن ترى هذا المكان ثانية ، ولن ترى «مارتن» .

* * *

بعد ستة أشهر من ترك «كرستين شو» لضيعة «ويكام» وفى أحد أيام شهر إبريل جلست فتاتان إحداهما ترتدى معطفاً من الصوف الخشن والأخرى ترتدى بذلة عسكرية . جلستا معاً فى فناء بيت صغير على حدود «دار تموور» . وكان هذا أحد أيام الربيع الدافئة الرقيقة النسمات فى مقاطعة «ديفونشير» بل كان أول يوم حقيقى

للربيع لأنه بالأمس كانت هناك ريح باردة أما اليوم فهو صحو ولا ريح فيه ، وقد بعثت الشمس بأشعتها فى جسارة من قلب سماء زرقاء صافية .

وكان هذا آخر يوم فى ثانى إجازة تقضيها «كرستين» عند صديقتها «باربرا» التى كانت تحاول دائماً أن تلهى كرستين وتقدم لها العديد من أصدقاء زوجها ، علها تقع فى غرام أحدهم . لكن قلب «كرستين» كان قد أوصد وأودعت مفاتحه يد مزارع تحول إلى الجندية . طفقت كرستين تستمتع بالمشهد الرائع الذى يذكرها بالريف الذى عاشت فيه فترة . وكانت صديقتها تشتغل «التريكو» . ثم قاطعهما جرس دراجة كانت لرجل البريد فتهللت «باربرا» قائلة : هيا يا كرستين ، هات لى من رجل البريد خطابى المعتاد من زوجى الحبيب فهذا أوانه . وقامت «كرستين» لكنها عادت برسالتين ، كانت ثانيتهما من فيونا التى مازالت تعيش فى «ويكام» . ويالله المفاجأة ! إنها منذ أن غادرت «ويكام» لم تعرف شيئاً عنها ، سوى أن السيد «ستاندنج» بعث إليها برسالة يطمئنها على «فيونا» ويخبرها أن «مارتن» فى مكان ما بالجنوب وهو على وشك أن يرقى إلى رتبة ضابط . أما هذه الرسالة فهى رسالة طويلة بدأتها فيونا بالحديث عن نفسها كعادتها لكن بقية الرسالة .. آه .. كانت عن شىء يهمها . إنها عن «مارتن» !

لقد قابلت «فيونا» مارتن فى إحدى إجازاته فحاول أن يتجنبها كما كان يفعل دوماً لكنها استوقفته وأخذت تقصّ عليه ما حدث وتصف له حزن «كرستين» ومدى جرحه لها . لقد انبهرت «فيونا» نفسها بما أحدثه حديثها الطويل إلى «مارتن» ، فقد أخذت تعنفه وتصفه بالقساوة حيناً وتصف له حال «كرستين» المسكينة حيناً آخر ؟ فقد طلب مارتن عنوان «كرستين» ووعد أنه سيكتب إليها فهو مازال يحبها وقد عانى الجوى فى الشهور الماضية مثلما عانت «كرستين» .

أفاقت «كرستين» على صوت «باربرا» الخافت يسألها : حبيبتى ، ما الخطب ؟ هل جاءتك أنباء سيئة ؟

فهزت «كرستين» رأسها وأخفت وجنتيها المحترقتين بيديها وهى تحاول أن تسيطر على فيض عواطفها . لقد قلبت رسالة «فيونا» حياتها رأساً على عقب ، وأحدثت أثراً عظيماً فى الجسم والعقل . قالت : لا يا «باربرا» إنها أنباء عظيمة ! إننى لا أستطيع أن أخبرك بهذه الرسالة الفريدة ، فلتقرئيها بنفسك . إننى لا أكاد أصدق نفسى .

وما إن قرأت «باربرا» الرسالة على عجل حتى رفعت عينين لامعتين لصديقتها وهى تقول : هذه حقاً أنباء عظيمة وإننى لفرحة لك فأنت تستحقين ذلك وهذا أجمل شىء صنعته «فيونا» فى حياتها .

وتعانقتا . ثم قالت «كرستين» فى نشوة : لقد أخبر «فيونا» أنه لازال يحبنى ! وقد أخذ عنوانى . أتظنين أنه سيتصل بى حقاً ؟

أتظنين أنه يريد أن يرانى ثانية أم أنه فعل ذلك فقط ليهدئ «فيونا» التى بكت بعدما قالت له ؟ هزّت «باربرا» رأسها وهى تقول : هذا غير محتمل تماماً .

فحبيبك هذا يبدو من النوع الذى لا يقول إلا ليفعل . إننى أتوقع أنك حين تعودين إلى المعسكر غداً ستجدين رسالة تنتظرك .

– آه .. قد أموت فرحاً – فأنا أحس تغيراً شاملاً . الآن أصبح هناك شىء أعيش وأطمح إليه . لقد كنت كالميت طوال الشهور الماضية ، كالميت تماماً !

* * *

كم كانت الرحلة طويلة مملة هذه المرة إلى «يلفرتون» حيث تقيم فتيات السرية التى تنتمى إليها «كرستين» فى بيت ريفى مهجور فى ضواحى المدينة . فى البهو وضعت منضدة تحمل الرسائل والطرود ، وكانت «كرستين» على وشك أن تندفع إليها عندما رأت قائدة سريتها فكان عليها أن تقف «انتباه» لتؤدى لها التحية ، ولكم تمنت أن تضرب بالنظام عرض الحائط فتتجاهل قائدتها كى تبحث عن رسالة «مارتن» . نظرت المرأة إلى السائقة الجميلة فى رفق وسألتها : هل استمتعت بإجازتك ؟

– جداً . شكراً سيدتى .

– إننى أريد رؤيتك بمجرد أن تستطيعى المثول فى مكتبى . سيتم نقلك فى الحال .

اتسعت عينا كرستين : أُنقل ؟ لكنّى كنت أخالنى سأمثل أمام هيئة الانتقاء فى الأسبوع القادم من أجل الترقية !

– وسوف يكون يا «كرستين» لكن جاءنى أمر يطلب سائقاً إضافياً فى .. وذكرت اسم مدينة فى ضواحى لندن – وقد قلت إنك أفضل السائقات لذا سأرسلك فى الظهيرة .

أخفق قلب «كرستين» وأحسّت أن كل شىء يحدث لها فجأة ، لكن على المرء أن يعتاد التغييرات والتنقلات فى الجيش . مضت قائدة السرية فأسرعت «كرستين» إلى المنضدة فوجدت لها رسالتين لكن سرعان ما سقط قلبها فى هوة سحيقة . إن أياً من الرسالتين لا يحمل اسم «مارتن» . تباً لذلك ! أخذت الدموع تتساقط من عينيها وهى تصعد الدرج (السلم) خائبة الأمل تلوم نفسها أن صدقت ما قالت «فيونا» . ليتها لم تبعث بهذه الرسالة . لقد كان ما ظنته صحيحاً من أن «مارتن لا يريد أن يجدد علاقته بها وأن ما قال كان ليهدئ «فيونا» فقط .

وعلى الدرج قابلتها سائقة صديقة لها فحيتها وأخذت تسألها كيف قضت إجازتها كما هنأتها بالانتقال إلى ضواحى لندن وأضوائها .

لكن كل ذلك لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لكرستين بعد أن علمت أن «مارتن» لم يكتب لها . لن يكتب لها . لا يريد رؤيتها . لن يراها . وما أن هبطت الصديقة بعض الدرجات حتى صاحت راجعة وقد تذكرت شيئاً : كرستين ، أعتذر أن نسيت . هذه برقية جاءتك هذا الصباح وقد حفظتها معى حتى ألقاك . تفضلى .

اختطفت «كرستين» المظروف البرتقالى وقد تدفقت بداخلها الآمال والأحلام ثانية . قد تكون من «مارتن» . قد تكون . وما أن قرأت الكلمات المطبوعة حتى صارت الآمال حقائق . إنها من مارتن . إنها أكثر مما أملت .

«لابد أن أراك لأمر عاجل . سأكون فى لندن فى ٢١ إبريل هل يمكنك مقابلتى فى «بركلى» فى الواحدة ؟» .

أخذت تقرأ الكلمات مرات ومرات . إذن كل شىء كان يسير لصالحها ، فهى ستكون فى «لندن» وتستطيع أن تستأذن ساعة لترى «مارتن» . وطارت إلى غرفتها وقلبها عصفور يغرد . عند الغداء ستذهب إلى مكتب البريد لترسل الرد إلى «مارتن» . إنها ستقابله فى اليوم الموعود ، بعد غد ، حتى وإن اضطرت أن تترك عملها بدون إذن . المهم أن تذهب فى ذاك الميعاد .

* * *

الفصل الثالث عشر

فى الواحدة إلا الربع جلس الملازم «مارتن فارلونج» فى ردهة «بركلى» يدخن سيجاره وعينه القلقة منصبة على سيل البشر الداخل والخارج من الفندق . لقد طلب من «كرستين» أن تحضر فى الواحدة وقد حضر هو قبل الموعد بربع ساعة . كان قلقه شديداً لهذا اللقاء لدرجة أنه لم يكد يدرى ما يفعل طول الصباح حتى هذه الساعة . الآن هو يعرف أكثر من أى إنسان آخر أن كرستين أعز عليه من أى شىء وأى أحد على وجه الأرض ، فكان من الضرورة القصوى له أن يرؤم صدع علاقتهما ، وقد علم ذلك منذ لقائه بفيونا فى «كارتمل» .

لقد كانت كذلك ذات أهمية عظمى له مذ عملت معه فى المزرعة تحت اسم «فيونا» وقد تخيل أنه يستطيع بعد ما حدث أن يطردها من قلبه ومن حياته ، لكنه لم يستطع أن يفعل أياً منهما . أثناء تلك الشهور التى قضاها فى الجيش كان يمتلكه شوقان . شوق لها وشوق للأرض التى ترعرع بين جنباتها ؛ وقد بدا الأول أملاً قد خبا والثانى أملاً لن يحدث قبل أن تضع الحرب أوزارها . لكنه الآن أحس أن أول وأهم شىء سيعود إليه ... «كرستين» .

لقد فتحت له «فيونا» الباب رغم أنه كرهها لأنها كانت السبب فى كل ما حدث . أما الآن فهو ممتن لها لأنها أظهرت له حمقه . لقد

أولته ضربة أفاقته فأدرك أن كل ما نعتته به صحيح : متزمت مغرور... رجل تجاسر على أن يجعل من نفسه قاضياً .. أحمق درأ عن نفسه الحب فتعذب وعذب من أحب .

عندما أبرق إلى «كرستين» أحس أنها مخاطرة . مخاطرة أن يخذل ولهذا كانت برقيته مدفوعة الرد خشية أن يمنع «كرستين» كبرياؤها من مقابلته . لكنه عندما تسلم الرد بالقبول أحس كأنه رجل آخر ؛ لأنها من المؤكد لن تقابله إلا إذا كانت مستعدة للصفح .. وقد كانت هناك أشياء لتغتفر .. كبرياءه المتعنت وعدم تسامحه . لقد خذلها لأنه كان قد أحس أنها خذلته ، لكن هذا كان عملاً زرياً علمه الآن .

طفق «مارتن» يتخيل «كرستين» فى زيها العسكرى وكيف ستكون بعد شهور البعد والتغير الكامل فى حياة كل منهما .. وظلت العيون الزرقاء القلقة تحدج النساء المارات وتكاد تنخلع من مكانها كلما رأت إحداهن فى زى عسكرى يتأكد بعد قليل أنها ليست «كرستين» . وكان هو يسترعى التفات المارات بملاحة وجهه وزيه العسكرى وقد طبعت على كتفه كلمة «الفدائيون» . لكن الضابط الفدائى الشاب لم يكن ليرى أحداً ، فهناك امرأة واحدة فى العالم تشغل باله ، امرأة واحدة فى حياته كلها .

ثم رآها ! نهض وقد أطفأ السيجارة فى مكانها . أنّ قلبه وهو يلمحها قادمة إليه بجسمها الرقيق الممتلئ جمالاً رغم صرامة الزى

العسكرى وذاك القناع الواقى من الغاز المعلق فى كتفها . مد قلبه ليصافحها وهو يقول : حبيبتى . كم هو جميل أن أراك .

ارتعش جسمها قليلاً وهى تلفظ اسمه ثم وقفا دقيقة أو دهراً ينظر كل منهما إلى الآخر دونما كلام . ثم هز رأسه مبتسماً : أنت فى الجيش ؟ لم أكن أتوقع ذلك .

– وأنت كذلك !

– لقد اختلفت قليلاً عما مضى .

– بل اختلفت كثيراً .

فأشار إلى زيها وهو يقول : إنى أفضلك فى هذا .

– وأحبك أيضاً فى هذا . لكن الزى الذى أرتديه غير مهندم . سيكون لى زياً مخصصاً عندما أحصل على ترقيتى .

– إنك تبدين لى جميلة هكذا .

– شكراً لك .

– شكراً لك أنت على حضورك .

– كان كرماً منك أن تطلب حضورى .

– لقد اشتقت إلى رؤيتك ، فقد أنقل إلى بقعة أخرى قريباً فلا أراك ثانية . لذا كان علىّ أن أتصل بك لتوى .

– هل تقصد أن القتال سيبدأ ؟

– لا أستطيع الإجابة عن أى سؤال . فقط أردت أن أراك الآن عندما علمت أننى سأكون فى لندن .

طفقت عيونها تستمتع بالنظر إليه . إنها تحبه لدرجة لا يتخيلها إنسان وقد أحسّت أنه مشرف على القتال وهو يعلم ذلك وقد لا يعود ثانية . آه يا «مارتن» !

قال «مارتن» : اجلسى نشرب شيئاً .

فجلست وقد خلعت كمامة الغاز وأرسلت خصلات شعرها فأخذ ينظر إليها وهو يقول : الآن أنت المرأة التى عرفتها .

فقالت : إننى مازلت كما أنا . ثم ضحكت فى شىء من قلق وأردفت : إن ما بداخلى لم يتغير . فهل تغيرت أنت ؟

– لا . فمازلت ذلك الأعجمى الجاف الذى اعتاد مضايقتك ، ومازلت أكره هذا المكان وأريد أن أعود إلى المزرعة فأرى الزرع يشق وجه الأرض والأغنام ترعى على صدرها .

تنهدت «كرستين» تنهيدة طويلة ثم قالت : لا تقل ذلك فإن قلبى يلتاع شوقاً إلى كل شبر هناك .

– أو حقاً تفتقدين الريف ؟

– لا تستطيع أن تتخيل قدر شوقى إليه .

– لكم أحب سماع ذلك منك .

– تعلّم كم زاد حبى له يا «مارتن» .

– نعم . أصدقك .

وحلت لحظة صمت ثم أضاف : إننى لا أعرف كيف أبدأ الحديث معك يا «كرستين» لكننى أريد أن أقول لك بكل صراحة أننى لم أك محقاً فى الابتعاد والانتقاد . لقد أسأت التصرف وأود أن تغفرى لى إن استطعت ، فما عندى إلا عذر واحد وهو أنها كانت صدمة أخذت بعض الوقت حتى شفيت من آثارها .

تدفق الدم إلى وجنتيها حاراً دافئاً . قالت : إننى أدرك ذلك ولا تظن أنى ألومك . لقد كنت محقاً فى أن تصب اللعنات علىّ ، وما كان لى من عذر .

– سوى أنك فعلت ذلك من أجل شخص آخر . لقد أوضحت «فيونا» لى ذلك .

– حسن . فلنترك الحديث عن هذا الأمر .

– وأنا لا أريد إلا أن أفكر فيك كما أنت الآن يا «كرستين» .

ثم طلب من الجرسون أن يحضر لهما شيئاً يشربانه .

وسألت «كرستين» : أخبرنى بما فعلت فى تلك الفترة ، دون أن تخفى عنى سراً . فقد بعد الوقت منذ أن تقابلنا .

– نعم . بعد كثيراً .

– كيف حال الجيش معك ؟

وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث عن الجيش والمزارع و«مارتن» ينظر إليها وقد أحس بشىء من تأنيب الضمير لأن وجهها كان يدل

على حالها طيلة الفترة الماضية ، وقد كان هو السبب فى ذلك . وقد كانت هى حقاً محملة بأنواع الهموم لكنها الآن صارت شيئاً آخر .

بعد أن تناولا الغداء قال «مارتن» : الظهيرة والمساء ملك لك .

– هذا شىء جميل فأنا اليوم فى إجازة حتى منتصف الليل . لقد ادعيت أن أحد أقربائى جاء فى إجازة خاصة وفى حاجة ماسّة لرؤيتى .

– أنا لا أعرف صديقك هذا ، لكن الجزء الأخير حق تماماً . ما رأيك أن نأخذ سيارة أجرة إلى الحديقة العامة نشاهد بعض الأشجار والأزهار فنتظاهر بأننا فى الريف ؟ الجو اليوم جميل .

أومأت «كرستين» بالإيجاب ، وفى اللحظة التالية كانت السيارة تشق بهم شوارع «بيكاديلى» متجهة إلى «هايد بارك» .

لم تذكر «كرستين» يوماً من أيام الربيع أجمل من هذا اليوم ، فقد كانت الحديقة خضراء زاهية والسماء زرقاء صافية ، والشمس تعكس أشعتها صفحة الماء المحيط بالفسقية المواجهة لمداخل قصر «بكنجهام» . إن الحرب قادمة وهى و«مارتن» مستعدان لها ، لكنها الآن حلقت بخيالها و«مارتن» فوق مروج الريف الخضراء .

ثم سألته بشىء من الجد : ما هى أوامرك عن اليوم يا سيدى ؟

فامتدت أصابعه إلى أصابعها وهو يقول : أخالنى سأمنحك اليوم إجازة ثم انطلق بك فى سيارتى إلى «كارتمل» لنقابل القس .

– ولم سنفعل هذا ؟

– كى نعلن زواجنا .. هذا إن كنت ترغبين فى ذلك .

فالتفتت إليه بسرعة وقد أسرعت دقات قلبها وتحرق وجهها : مارتن !

– عزيزتى .. حبيبتى .. حبيبتى «كرستين» . لقد طلبت الزواج بك من قبل ولم تستطيعى الإجابة . لكننى هذه المرة أسألك وأنتظر منك أن تقولى «نعم» دونما تردد . لا أعتقد أننا نستطيع الذهاب إلى «كارتمل» فليس هناك وقت ، لكن دعينى أحصل على إذن خاص وتحصلى أنت على إجازة ونتزوج هنا فى «لندن» قبل أن أرحل إلى حيث لا أعرف .

جلست ساكنة وهى لا ترى شيئاً سوى وجه «مارتن» القوى الندى ، وقد ذهبت عنه كل أمارات القسوة . فأجابت دون تردد : سأتزوجك متى شئت وأينما شئت . إننى أحبك . وأنت تعرف ما أعاقنى فيما قبل أما الآن فلا شىء يمنعنى ولا شىء يستطيع أن يقف فى طريقى .

– حبيبتى .. حبيبتى .

ثم غاصا فى لجة من القُبل . ولما أحس «مارتن» أن الوقت ينسرق مسرعاً قال : حبيبتى ! إن هذا لن يكفى . لقد تعلمت أن أحتفظ برباطة الجأش فى كل الأحوال وإن كانت الحرب دائرة .

– وأنا كذلك .

– إذن ، فلنذهب الآن إلى «بوندستريت» لأشترى لك خاتمين – خاتم للخطبة وخاتم للزفاف .

– هذا أكثر من أصدق . أحقاً سنتزوج ؟

– إذا لم تمانعى أن تربطى نفسك بشخص مضجر مثلى . تعلمين أننى إن نجوت بعد الحرب فسوف أترك الجيش وأعود إلى الزراعة .

– وكذلك أنا ... سنمتلك مزرعة فى مكان ما .

– فى الشمال ؟

– نعم . بالقرب من «كارتمل» .

– وهل سنقضى أسبوع العسل على ضفاف البحيرات ؟

– لكم أعشق ذلك .

فرفع يدها إلى شفتيه يقبلها وهو يقول : ستكونين زوجة مثالية تحب كل ما يحب زوجها .

– سيكون هذا زواجاً نموذجياً .

– آه يا حبيبتى ! وسيأتى يوم نخلع فيه رداء الحرب ونعود إلى المزارع ، إلى الطبيعة ، إلى حيث يكون إكسير الحياة !!

– بل وإكسير الحب البائى معك يا فدائى .

« البـــداية »